

العنوان:	مناظرات ابن حزم : دراسة تحليلية
المؤلف الرئيسي:	الغزوي، سمير خالد احمد
مؤلفين آخرين:	الموسى، يونس خيرو الشنونا(مشرّف)
التاريخ الميلادي:	2014
موقع:	اربد
الصفحات:	1 - 313
رقم MD:	722286
نوع المحتوى:	رسائل جامعية
اللغة:	Arabic
الدرجة العلمية:	رسالة دكتوراه
الجامعة:	جامعة اليرموك
الكلية:	كلية الآداب
الدولة:	الاردن
قواعد المعلومات:	Dissertations
مواضيع:	ابن حزم، علي بن حزم، ت 384هـ، المناظرات العلمية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/722286

للاستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب أسلوب الاستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

الغزوي، سمير خالد احمد، و الموسى، يونس خيرو الشنوان. (2014). مناظرات ابن حزم: دراسة تحليلية
(رسالة دكتوراه غير منشورة). جامعة اليرموك، اربد. مسترجع من
<http://search.mandumah.com/Record/722286>

إسلوب MLA

الغزوي، سمير خالد احمد، و يونس خيرو الشنوان الموسى. "مناظرات ابن حزم: دراسة تحليلية" رسالة
دكتوراه. جامعة اليرموك، اربد، 2014. مسترجع من <http://search.mandumah.com/Record/722286>

الباب الثاني

مناظرات ابن حزم (قراءة بلاغية أسلوبية)

الفصل الأول: الإيقاع والصوت في مناظرات ابن حزم

الفصل الثاني: التصوير البلاغي في مناظرات ابن حزم

الفصل الثالث: ظواهر أسلوبية في مناظرات ابن حزم

توطئة

قد وصلنا إلى الجانب التطبيقي من دراستنا هذه، وإلى الجزء الأكثر أهمية فيها، فإن كان ما مضى من فصول قد وضعنا في صورة معقولة للمناظرات ولفلسفة ابن حزم ومنهجيته فيها، فإنّ هذا الباب سيضطلع بالجانب التطبيقي، وسيعيد قراءة مناظرات ابن حزم بلاغياً وأسلوبياً، ويحاول أن يتابع الظواهر الأسلوبية والتصويرات البلاغية والأدوات الفنية التي برزت في النصوص، ثم سيحاول أن يتعرف على أثرها الفني والجمالي على تلك النصوص. إنّ أهمية هذا الباب تعود إلى أنّها ستقيس مدى أدبية مناظرات ابن حزم، وكيفية تعاطيها مع الأدوات البلاغية والبديعية، ومدى استفادتها منها.

ونجد لزماً علينا قبلولوج إلى تلك المناظرات أن نتعرف على الأسلوبية والإنزياح، وعلى أثرهما في النصوص، ونتعرف كذلك على موقف ابن حزم من البلاغة، وعلى السمات العامة لأسلوبه.

فالأسلوبية هي دراسة أسلوب المبدع، وهذا الأسلوب يتلخص في اختيارات المبدع، وعليه "فإنّ الاختيار يشكل مسحة أسلوبية بارزة في الإبداع وهي مسحة يمكن فحصها والتأكد من أهميتها"^١. فالمبدع حين يختار ما يقوله فإنّ هذا الاختيار يمثلّه ويعبر عن ذاته، لأنّ اختيار لفظة أو تركيب ما دون سائر اللفظات والتراكيب أو اعتماد صيغة ما دون سائر الصيغ هي عملية تتصل بذات المبدع، وتميّزه عن غيره في نمطية اختياره.

وهذه العملية هي عملية تعتمد اللاوعي. لكنّها بالوقت نفسه لا تلغي وعي المبدع؛ "إذ أنّ هناك أدلة كافية تشير إلى وعي الشاعر وهو يختار كلماته وتراكيبه بعناية فائقة، وعلى هذا فإنّ الأسلوب كاختيار من بين إمكانيات لغوية متعددة لا يعني حرية خرقاء وإنّما هو انتخاب واع في إطار قد حدّد بوضوح بقرارات سابقة"^٢. وبكل تأكيد فإنّ لهذا الاختيار غاية نفعية وهدفا قصده المبدع وراعى فيه الموقف.

وحتى يُوصف نصّ ما بأنّه إبداعي، فإنّه يجب أن يتجاوز اللغة العادية والدلالات الأولية لها، وينتقل من درجة (الصفّر) من الكلام إلى انتهاكات وخروقات لهذا المستوى

^١ - أبو العدوس: الأسلوبية ص ١٧٢.

^٢ - المصدر نفسه ص ١٦٨.

من اللغة، وهذا يسمى انزياحا، والذي يُعرّف بأنه: "خروج عن المؤلف أو ما يقتضيه الظاهر، أو هو خروج عن المعيار لغرض قصد إليه المتكلم أو جاء عفو الخاطر، لكنّه يخدم النصّ بصورة أو بأخرى وبدرجات متفاوتة"^١.

وقد حصر غايات هذا الانزياح أو العدول عن الأصل اللغوي ابنُ جني فقال: "وإنّما يقع المجاز ويُعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي: الإلتباس والتوكيد والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة"^٢.

أمّا أثر هذه العملية الإنزياحية فإنّه يمتد إلى المبدع والمتلقي وإلى النص نفسه، فتصبح اللغة غير خاضعة للمعاني المعجمية بقدر خضوعها إلى إحياءات المبدع. وهذا يفيد النص بتساميه عن دائرة المعاني الضيقة والمعيارية إلى دوائر أوسع بكثير. ومن غايات الانزياح كسرُ توقع المتلقي ولفت انتباهه حتى لا يملّ. كما أنّ هذا الانزياح يمنح الجمالية والفنية للنص المبدع. وتتنوع الإنزياحات؛ فمنها موضعِي يؤثر على السياق فحسب، ومنها انزياحات شاملة تنتشر في النص وتشكل ظاهرة فيه.^٣

وتمثل البلاغة جوهر الإنزياح، فما البلاغة إلا انزياح عن أصل تواضع اللغة؛ "فالإستعارة والمجاز والكناية ما هي إلا أنواع من الإنزياح، لأنّها جاءت على غير المعاني التي وضعت لها أصلاً. وكذلك بالنسبة لموضوعات علم المعاني، فكل المعاني التي تخرج لها الأساليب الإنشائية من نداء وإستفهام وغيرها ما هي إلا معانٍ منزاحة عن الأصل. ولا يختلف علم البديع عن هذا، فالتورية والإلتفات وغيرها أنماط من الإنزياح، فالمتكلم يلفظ شيئاً ويقصد غيره في التورية، وفي الإلتفات يعدل المتكلم عن المخاطب إلى الغائب، ومن المتكلم إلى الغائب وغير ذلك"^٤. كما أنّ هناك ما يسمى بالإنزياح النحوي، ويكون في التقديم والتأخير وفي المخالفة بين العدد والمعدود، ويشمل جميع صور الخلاف النحوي.^٥

^١ - أبو العدوس: الأسلوبية ص ١٧٥.

^٢ - ابن جني: الخصائص ص ٢/٤٤٢.

^٣ - انظر: أبو العدوس: الأسلوبية ص ١٧٩-١٨٠ و ١٨٤.

^٤ - المصدر نفسه ص ١٨٧.

^٥ - انظر المصدر نفسه ص ١٨٤.

ونؤكد هنا أنّ الانزياح أمر نسبيّ خاضع للبيئة والزمان والموضوع، ومرتبّط بالعرف الأدبي، فقد تنتشر في عصر ما ظاهرة أدبية معينة، فنُعَدُّ ذلك إنزياحاً، لكنّ هذه الظاهرة حين أصبحت مهيمنة وغدت قاعدة، أصبح الخروج عنها نفسها إنزياحاً^١.

أمّا أسلوب ابن حزم، فقد اتسم -عموماً- بالوضوح وعدم التكلف، بل إنّه كان يكره الغموض والتعمية في الكلام، ويُعده تمويهاً خادعاً، فقد كان "إذا أسهب جليّ، وإذا اختصر أبان، وفي ثنايا المحلى وبين مسائله صفحات لا تقلّ في أدبها بلاغة وبياناً عن أدب الجاحظ وابن المقفع"^٢. والأهم من هذا أنّ نصاعة البيان وإشراق العبارة والسهولة التي تميز بها ابن حزم ليست مجرد طبيعة فيه، بل إنّ "ابن حزم كان ينتهج ذلك انتهاجاً، بقصد الإبانة والإفهام"^٣.

وقد كان ابن حزم غير مسرف في الخيال، ولا في الزخارف اللفظية والمعنوية، بل أنّه كان ذا عقلية واقعية تحترم الحقيقة، وتجزع من الإكثار من الخيال ويمقت الإفراط في التشبيه والتخيل^٤، ويقول عنه (بالنثيا): "وكان ابن حزم يأخذ على الكثيرين من معاصريه الصنعة التي كانوا ينظمون بها شعرهم... ولم يسرف ابن حزم في استعمال المجازات والتشبيهات وأضربُ البلاغة كما كان يفعل غيره، ولم يقع في المبالغات العاطفية أو قعاقع الألفاظ إلا قليلاً"^٥.

وقد نستطيع حصر أسلوب ابن حزم بأنماط عامة تبعاً لما يعالجه النص؛ فإذا كان النص يعالج أفكاراً أو نظريات فإنّ التقسيم المنطقي والتحليل الذهني والعبارات الدقيقة هي طابع الأسلوب، أمّا إذا عالج تجارب موضوعية لا تتسم بالخصوصية فإنّ براعة التصوير وطلاوة التعبير هي السمة البارزة في أسلوبه، أمّا إذا عالج تجاربه الذاتية ومشاعره وأحاسيسه، فإنّ الأسلوب سيكون شديد الروعة تغلب عليه أناقة التعبير وحرارة الإنفعال، يكاد يصل فيه إلى غنائية الشعر^٦. والأسلوب الأخير برز جلياً في كتابه الذي عنى بالإعترافات الشخصية وسبر أغوار النفوس (طوق الحمامة). وقد عُدَّ هذا النمط الكتابي في الكتاب "فنّاً جديداً في النثر من الأدب العربي"^٧.

^١ - انظر أبو العدوس: الأسلوبية ص ٨٩-٩٠.

^٢ - لجنة موسوعة الفقه الاسلامي: معجم فقه ابن حزم ص ٥٥ م.

^٣ - المصدر نفسه ص ٦٩ م.

^٤ - إبراهيم: ابن حزم الأندلسي المفكر الظاهري ص ٩٦.

^٥ - بلنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٧٥.

^٦ - انظر: السهيلي: تجديديات الأندلسيين في النثر العربي ص ٢٤٥-٢٤٧.

^٧ - المصدر نفسه ص ٢٤٩.

أمّا حال النثر في عصر ابن حزم، فقد عرضنا له في (التمهيد) من هذه الرسالة، ورأينا كيف غلبت عليه الصنعة الفنية والإلتزام بالزخارف البديعية، والبراعة في التصوير والإغراب في الخيال، ونزوع الكُتّاب إلى الإفاضة والإطناب، وموافقة المعنى للمبنى، كما كان كثيرون يمزجون المنظوم بالمنثور.^١

نظرياً، دافع ابن حزم عن علوم البلاغة؛ فقال: "وإن من أنكر البيان وما يصوبه النحو واللغة ... لمخذول مسخّم الوجه"^٢. وقد عرّف ابن حزم البلاغة بأنّها: "ما فهمه العامي كفهم الخاصيّ وكان بلفظٍ ينتبه له العاميّ لأنّه لا عهد له بمثله، وينتبه له الخاصيّ لأنّه لا عهد له بمثل نظمه ومعناه، واستوعب المراد كله ولم يزد فيه ما ليس منه، ولا حذف مما يُحتاج من ذلك المطلوب شيئاً..."^٣.

وقد قسّم ابن حزم المدارس البلاغية إلى قسمين؛ "أحدهما مائل إلى الألفاظ المعهودة عند العامة كبلاغة عمرو بن بحر الجاحظ، وقسم مائل إلى الألفاظ غير المعهودة عند العامة كبلاغة الحسن البصري وسهل بن هارون. ثم يحدث بينهما قسم ثالث أخذ من كلا الوجهين كبلاغة صاحب ترجمة كليلّة ودمنة ابن المقفع"^٤.

ويمكن تلخيص أهم آراء ابن حزم البلاغية في: "أ- اندماج البلاغة مع الكتابة... فالبلاغة تجاوزت لحدود القول المعهود في الشعر والنثر، والكتابة خرق لذلك الصمت الرهيب الذي تفرضه علينا اللغة المنطوقة!

ب- تزواج البلاغة بالإقناع: يُقدّم الإقناع عند ابن حزم على المنطق، ويُقدّم هذا الأخير الأدوات اللازمة لتقديم المقدمات وإنتاج النتائج وبناء الألفاظ بعضها على بعض وليست البلاغة إلا ذلك...

ج- السمة التعليمية للبلاغة: ... فيقرر وجوب التسوية فيها بين العاميّ والخاصيّ بألفاظ ينتبه لها العامي مع عدم تَعَوُّده على مثل ذلك النظم، ثم تجده يستوعب المراد كله دون أن يزيد عليه أو ينقص، ثم تمكنه بعدئذ من حفظه لسهولة ألفاظه وقصره"^٥.

^١ - انظر: الحسن: الرسائل الأدبية النثرية ص ٣٥٢-٣٥٤.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٨٥.

^٣ - المصدر نفسه ص ٤/٣٥٢.

^٤ - المصدر نفسه ص ٤/٣٥٢.

^٥ - بوقرة: النظرية اللسانية عند ابن حزم ص ٥٤-٥٥.

الفصل الأول

الإيقاع والصوت فى مناظرات ابن حزم

- ١- السجع
- ٢- الإزدواج
- ٣- الجنس
- ٤- التكرار
- ٥- التقسيم

في هذا الفصل نحن بصدد الوقوف على الظواهر الصوتية في مناظرات ابن حزم، وسنحاول معرفة الأثر الموسيقي والإيقاعي على المعاني والمضامين، ورصد كثافة حضور هذه الظواهر في المناظرات، وأثرها على العملية التواصلية.

ولا يخفى ما للإيقاع والموسيقى من أثر في الكلام؛ "والكلام الموزون ذو النغم الموسيقي يثير فينا انتباهاً عجباً، وذلك لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تتسجم مع ما نسمع من مقاطع لتتكون منها جميعاً تلك السلسلة المتصلة الحلقات التي لا تنبو إحدى حلقاتها عن مقاييس الأخرى... فإذا سيطر النغم الشعري على السامع وجدنا له انفعالاً في صورة الحزن حيناً، والبهجة حيناً آخر والحماس أحياناً، وصحب هذا الإنفعال النفسي هزات جسمانية معبرة ومنتظمة نلاحظها في المنشد وسامعه معاً"^١.

في النثر يصبح الإيقاع والموسيقى أمرين هامين، كأهمية الوزن في الشعر، ويرتبطان بعمق وبشكل وظيفي - أحياناً - مع المعاني، وفي التعبير عنها؛ إن الإيقاع يؤلف خصيصة عريقة ومهمة من خصائص التعبير الانفعالي^٢، فهو: "حركة تموج وتدفق وانسياب، وهو صوت المعنى في الشعر، إذ يصدر عن اندفاع التأثيرات الصوتية للألفاظ، وتتابع النبرات والتقطيعات والزخارف بتيار الوزن والقافية"^٣.

١ - السجع

يُعرّف السجع بأنه: "اتفاق فواصل الكلام في الحرف الأخير دون تقييد بالوزن، وأفضله ما تساوت فقره"^٤. وهو في النثر أضرب:

١ - المرصع: وهو ما اتفقت فيه ألفاظ إحدى الفقرتين أو أكثرها في الوزن والحرف الأخير.

٢ - المتوازي: وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من المقطع الأول مع نظيرتها في المقطع الثاني في اللفظ والحرف الأخير.

٣ - المفرّق: وهو ما اختلفت فاصلتاه في الوزن واتفقتا في الحرف الأخير.

١ - أنيس: موسيقى الشعر ص ١١، ١٢.
٢ - انظر: الحسن: الرسائل الأدبية النثرية ص ٣٩٠.
٣ - المصدر نفسه ص ٣٩٢.
٤ - أبو العدوس: البلاغة العربية ص ٣٠٧.

أما من حيث القصر والطول فهناك السجع القصير، وتكون فيه كل من السجعتين متألفة من ألفاظ قليلة، وهناك السجع الطويل الذي تكون فيه كل من السجعتين مؤلفة من ألفاظ كثيرة^١.

ويشترط ابن الأثير لحسن السجع أربع شرائط: "الأولى: اختيار مفردات الألفاظ... الثانية: اختيار التركيب... الثالثة: أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى لا المعنى تابعاً له... الرابعة: أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلت عليه أختها"^٢.

وقد استحسّن السجع فريقٌ وفضّله على الكلام المرسل، واستقبحه فريقٌ آخر محتجين بأميرين: "أحدهما اشتماله على الكلفة، والثاني قوله عليه الصلاة والسلام: (أسجعا كسجع الجاهلية). وكلا الحجتين فاسدة؛ أما الأولى فلائّه لم يخلُ شيء من الكلام من تكلف ما، وأما الثانية فلأنّ الإنكار كان لسجع مخصوص وهو ما قصد به إبطال حق أو تحقيق باطل، ولو كان السجع قبيحاً لاستحال وروده في القرآن"^٣.

وقد جاء تفضيل السجع المطبوع على الإزدواج، لأنّ السجع غير المصنوع يظهر مقدرة الكاتب ونبوغه وتصرفه بالقول، وفي ذلك جاء في (التوابع والزوابع) أنّ (ابن شهيد) بعدما سمع (عُثْبَةَ بن أرقم صاحب الجاحظ)، الذي بنى كلامه على الإزدواج، قيل له: "لا يغرّك منه، أبا عُيَيْنَةَ، ما تكلف لك من المماثلة، إنّ السجع لطبعه، وإنّ ما أسمعك كلفة. ولو امتدّ به طلق الكلام، وجرت أفراسه في مَيِّدان البَيان، لصلى كودنّه وكل بُرئئّه"^٤.

أما السجع المتكلف فهو يشير إلى تردي مستويات الكلام والتخاطب، وقد جاء في التوابع والزوابع -أيضاً- أنّ ابن شهيد وصف (لعُثْبَةَ بن أرقم) كلام النَّاس وتخطبهم، فقال: "ليس لسببويه فيه عمل، ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة. إنّما هي لكنة أعجمية يؤدّون بها المعاني تأدية المَجوس والنَّبَط"^٥. فصاح عتبة وقال: "إنا لله،

^١ - انظر: أبو العدوس: البلاغة العربية ص ٣٠٧-٣٠٨.

^٢ - ابن الأثير: المثل السائر ص ١٩٩-١/٢٠٠.

^٣ - ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ٢٢٨.

^٤ - ابن شهيد: التوابع والزوابع ص ١١٧.

^٥ - المصدر نفسه ص ١١٧.

ذهبت العربُ وكلامُها! ارمهم يا هذا بسَجع الكَهَّان، فعسى أن ينفعك عندهم، ويُطير لك ذِكراً فيهم. وما أراك، مع ذلك، إلا ثَقيل الوطأة عليهم، كَرِيه المجيء إليهم"^١.

وقد بدأت حلية السجع تشيع منذ أواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع الهجري، خاصة في المكاتبات الرسمية، أمّا في القرن الرابع الهجري فقد صار أسلوباً هاماً من أساليب الكتابة، وأصبح مقياساً في كثير من الأحيان للبراعة^٢.

أمّا صاحبنا ابن حزم فقد ظلّ يعتمد البساطة وابتعد عن الزينة اللفظية عموماً والسجع خصوصاً. ويوازن (إحسان عباس) بين أسلوب ابن حزم في (طوق الحمامة) مع أسلوب ابن شهيد في (التوابع والزوابع)، فيفضّل الطوق "لسهولة طبيعته وجريان أسلوب المسترسل، ولم نجد فيه حلية لفظية"^٣.

وعندما تحدثنا عن الإنزياح عرفنا أنّه خروج عن العُرف الأدبي في عصر ومكان ما، فاين الإنزياح عند ابن حزم وهو لم يكثر من السجع؟! نقول: إنّ إنزياح ابن حزم كان عن الإنزياح نفسه؛ "فشيوخ السجع في النثر العربي - مثلاً- يُعد انزياحاً إذا قورن باللغة المعيارية، ولكّنه عندما أصبح هو القاعدة في الكتابة الفنية لم يعد ظاهرة أسلوبية، وأصبح عُرفاً أدبياً مُلزماً كالقاعدة النحوية، وأصبح الخروج عليها ثورة أدبية يمكن أن تكون إنعكاساً لثورة ما"^٤.

فعصر ابن حزم عصر الصنعة اللفظية، وقد راج السجع واستهوى الكُتاب، لكن ظاهرية ابن حزم حثمت عليه الوقوف إلى جانب الوضوح والبعد عن أيّ تعقيد أو غموض، وكان لمنهجه الرفض للتقليد أثر في عدم نزوعه منزع كُتاب عصره، وهذا كله لا ينفي أنّ ابن حزم استخدم السجع، لكن في إطاره الطبيعي وحدّه المعقول. ومن هذه النماذج:

(١) "الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى ملائكة الله المقربين وأنبيائه المرسلين"^٥. هذه مقدمة لأحدى رسائل ابن حزم التي ردّ بها على (الهاتف من بُعد). ويظهر فيها السجع، وبما أنّ هذه المقدمة نمطية متكررة عند عامة

^١ - ابن شهيد: التوابع والزوابع ص ١١٧.

^٢ - انظر: الحسن: الرسائل الأدبية النثرية ص ٣٩٦.

^٣ - عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٤٣.

^٤ - انظر: أبو العدوس: الأسلوبية ص ١٩٠.

^٥ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١١٩.

الكتاب، فإنها ستغدو أقل أهمية، تشير فقط إلى عدم رفض ابن حزم المطلق للسجع. فإذا انتقلنا إلى التقديم الذي يتلو هذه الافتتاحية، وجدناه يقول:

(٢) "فكانتا [أي رسالتا الخصم] كالشيء المسروق المجحود، وكابن الغيبة المنبوذ، كلاهما تتهاداه الروامس بالسهب الطوامس"^١. ثم يكمل بكلمات مسجعة (المسلمين، المؤمنين) (معرضين، متدينين) (سلف، خلف)^٢.

لقد شكل السجع حالة موسيقية إيقاعية، خفت من جفاف الموضوع مدار المناظرة، وأعطته مسحة فنية، وزاد من هذه الفنية تلقائية هذه السجعات، وعدم القصد إليها.

(٣) وفي رده على من يتهمة بأنه يفتي بما ليس في القرآن والسنة، يُكذّب هذا ويقول: "وكتبتنا حاضرة ومشهورة، ظاهرة منشورة"^٣. وقد أفاد السجع تأكيداً للمضمون، وأبرز ثقة ابن حزم بنفسه وبكتبه التي ألفها.

(٤) "ولن يعدم على ذلك خزيًا من الله عاجلاً وآجلاً، ومقتاً من عباده عوداً وبدءاً"^٤. لقد أظهر السجع في هذين الموضعين حنق ابن حزم الشديد على هذا الخصم، وأنه يريد له الخزي والمقت في (العاجل والآجل) وفي (العود والبدء). فالسجع هنا لم يأت على شكل كلمات مترادفة زائدة، إنما جاء موافقاً للحالة النفسية الغاضبة، والمسيطرة على مشاعر ابن حزم.

(٥) وفي جواب ابن حزم على من تمنى موته وإراحة العباد والبلاد منه، فإن ابن حزم، يؤكد له أن موته ليس نهاية الأمر لأنّ كتبه ستكون عليهم "حزناً طويلاً، وخزياً جزيلاً"^٥. إن هذا السجع يخفي داخله تهكماً ومناكفة وإغاطة للخصم واستخفافاً به.

(٦) وفي رده على ابن النغريلة المعترض على آية من القرآن الكريم والزاعم تناقضها، يقول ابن حزم: "وما أرى هذا الزنديق الأنوك إذ اعترض بهذا الإعتراض كان إلا سكران الخمر، وسُكّر عجب الصغير إذا كبر، والخسيس إذا أشر"^٦.

يحمل هذا السجع الثلاثي موجة غاضبة على هذا الخصم، وكان هذا السجع جزءاً من صورة ذمّية وصف بها ابن حزم هذا اليهودي. إذ أنّ هذه الحدة أكثر ما تظهر عندما

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١١٩.

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٣/١١٩.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٢٥.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٢٥.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١٢٧.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/٤٤-٤٥.

يُنَظَرُ اليَهُودَ، لِأَنَّ ابْنَ حَزْمٍ ضَيَّقَ الصَّدْرَ أَمَامَ الَّذِينَ يَنْكُرُونَ الْحَقَائِقَ، وَيَتَنَكَّرُونَ لِعُقُولِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ.

(٧) "...لِأَنَّ الْخَلْقَ هُوَ الْإِخْتِرَاعُ وَالْإِبْدَاعُ وَإِخْرَاجُ الشَّيْءِ مِنْ لَيْسَ إِلَى أَيْسٍ"^١. إِنَّ هَذَا السَّجْعَ يَأْخُذُ بَعْدَ تَعْلِيمِيًّا تَوْضِيحِيًّا، وَقَدْ اسْتَدْعَاهُ ابْنُ حَزْمٍ لِمُغْرَضِ الشَّرْحِ وَالتَّوْضِيحِ.

(٨) يَقُولُ ابْنُ حَزْمٍ عَنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ: "الْمُتَكَفِّلُ لَهَا فِي الْآخِرَةِ بِالْفُوزِ بِالْجَنَّةِ وَالْقَبُولِ وَالرِّضْوَانِ وَالرِّيحَانِ"^٢.

(٩) "لَمْ يَقْرَهُ الشَّيْطَانُ مِنْ كُلِّ مَا اسْتَبَانَ لَهُ مِنْ هَذَا الْبَهْتَانِ إِلَّا أَنْسَلَخَهُ مِنْ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، وَبِاللَّهِ تَعَالَى نَعُوذُ مِنَ الْخِذْلَانِ"^٣.

(١٠) "وَأَنْهُمْ فِي بَاطِلٍ وَغُرُورٍ وَضَلَالٍ وَزُورٍ"^٤.

هَذِهِ ثَلَاثُ خَاتَمَاتٍ، خَتَمَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ رَدَّهُ عَلَى مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ ابْنِ النُّغْرِيلَةِ، وَيُظْهَرُ فِيهَا نَوْعٌ مِنَ الْقَصْدِيَّةِ لِهَذَا اللَّوْنِ الْبَدِيعِيِّ، لَمَّا يَمْنَحُهُ مِنْ تَكْثِيفٍ لِّلْمَعَانِي، وَتَسْلِيْطٍ لِلضُّوْءِ عَلَى عِبَارَاتٍ أَرَادَهَا ابْنُ حَزْمٍ وَاضِحَةً لِّخَصْمِهِ.

(١١) "وَهُوَ [يَقْصِدُ عِلْمَ الْهَيْئَةِ] عِلْمُ بَرَهَانِي حَسَنٍ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ الْأَفْلَاقِ وَمَدَارِهَا وَتَقَاطُعِهَا وَمَرَكَزِهَا وَأَبْعَادُهَا، وَمَعْرِفَةُ الْكَوَاكِبِ وَانْتِقَالِهَا وَأَعْظَمُهَا وَأَبْعَادُهَا"^٥.

هَذَا نَصٌّ مِنْ رِسَالَةٍ (التَّوْقِيفُ عَلَى شَارِعِ النِّجَاةِ) وَهِيَ رِسَالَةٌ ثَنَائِيَّةٌ الْعَرَضُ، تَوَازَنُ بَيْنَ عِلْمِ الْأَوَائِلِ وَعِلْمِ النُّبُوَّةِ، لِذَا يَغْلِبُ الطَّابِعُ الْإِصْطِلَاحِيُّ وَالْعِلْمِيُّ عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ، مِمَّا يَقِلُّ مَسَاحَةُ الزَّخَارِفِ اللَّفْظِيَّةِ وَاللَّفَاتِ الْبَيَانِيَّةِ، وَفِي هَذَا النِّصِّ تَحْدِيدًا أَسْهَمَ السَّجْعُ فِي التَّخْفِيفِ مِنْ ثِقَلِ الْمَصْطَلَحِ وَجَعَلَهُ أَكْثَرَ قَبُولًا وَوَضُوحًا.

(١٢) "فَإِنْ قِيلَ أَنَّ لَهُمْ [يَعْنِي سُكَّانَ الْبُؤَادِي] عِلَاجَاتٍ يَسْتَعْمِلُونَهَا قَلْنَا تِلْكَ الْعِلَاجَاتُ لَيْسَتْ جَارِيَّاتٍ عَلَى قَوَانِينِ الطَّبِّ"^٦.

ثُمَّ اسْتَبْدَالَ لِلْكَلِمَةِ الْأَقْرَبِ حُضُورًا (جَارِيَّةً) بِكَلِمَةِ مَسْجُوعَةٍ (جَارِيَّاتٍ)، وَلَعَلَّ هَذَا الْإِسْتَبْدَالَ قَصَدَ إِلَيْهِ ابْنُ حَزْمٍ لِيَجْعَلَ حُكْمَهُ هَذَا بِمِثَابَةِ قَاعِدَةٍ أَرَادَ أَنْ يَثْبِتَهَا فِي ذَهْنِ الْمُتَلَقِّي.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٤٨.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٤٨.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٥٣.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٥٥.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١٣٣.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/١٣٣.

(١٣) "وهذا بخلاف ما تقتضيه الطبيعة مما لا يحتاج فيه إلى معلم: كالرضاع والأكل والشرب والجماع..."^١. يكاد أن يكون هذا السجع بتلقائيه وباستدعاء النص له أقل تأثيراً على النص من الأسجاع المتكلفة، لكنه - رغم ذلك - منح النص إنسياباً وإيقاعاً لذيذاً.

(١٤) "فهذا بيان ما سألت عنه بغاية الاختصار والبيان ونهاية البرهان"^٢.

كان للجملة أن تكسب إيقاعاً وعذوبة أكبر لو تَقَصَّد ابن حزم السجع، فقد جاءت كلمة (الاختصار) بين جملتي السجع، مما قلل الاعتماد عليها، ويُفهم من هذا أنّ السجع لم يكن غاية، وأنّ أيّ معنى سيعيق السجع ظهوره، فإنّ ابن حزم لن يأتي به.

فالسجع عند ابن حزم نزر قليل، وهذا القليل يأتي في غالبه عفو الخاطر بعيداً عن التكلف، وأكثر حضوره في بدايات المناظرات ونهاياتها. ويغلب على جملة القصر. فيما سيأتي من نماذج سنورد جملاً كانت قريبة من السجع، وكان المتوقع أن تأتي مسجوعة، لكنّ عدولاً مقصوداً عنها يظهر للقارئ، وهذا الإضراب عن السجع يثير تساؤلات عديدة حول علاقة ابن حزم مع هذه الصنعة البديعية. ومن هذه النماذج:

(١) " وإئماً وصَمْنَا بذلك جسارة وحيفا فيما نسب، وَصَمَّ جيل معرضين عن القرآن والسنن، متدينين بالرأي والتقليد"^٣.

ربما يلوح للسامع أنّ السجع سيطرّد، لكن كسراً لتوقعه حدث، فكلمة (التقليد) جاءت بحرفيتها، لأنّ ابن حزم يعنيها بحرفيتها تلك، فهي تشكل عنده قضية أساسية في مناظراته، وبالتالي لن تستطيع أي كلمة مرادفة أخرى الحلّ محلها.

(٢) " ولأردنَّ على ربِّ رحيم، وشفيع مقبول"^٤.

ربما كان من السهل على ابن حزم أن يأتي بكلمة لها نفس الحرف الأخير لكلمة (رحيم)، فيشكل سجعاً وإيقاعاً لجملته، لكننا نعتقد أنّه أراد من كلمته (مقبول) دون سواها، تسجيل موقف عقديّ تجاه قضية الشفاعة والتوسل بالرسول - صلى الله عليه وسلم- ففي عصره قد اختلط فيه التوسل المشروع مع غير المشروع بالرسول الأكرم - صلى الله عليه وسلم- مما جعل ابن حزم يؤثر إيراد موقفه على إيراد سجع للجملة.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٣٦/٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ١٤٠/٣.

^٣ - المصدر نفسه ص ١١٩/٣.

^٤ - المصدر نفسه ص ١٢٧/٣.

(٣) "ولا عليك أن مُت عاجلاً أو تأخر موتي..."^١.

هنا السجع قريب المنال (إن مت عاجلاً أو آجلاً) لكن انحرافاً مقصوداً عنه يمكن ملاحظته بسهولة. وهذا يؤكد لنا أن لابن حزم موقفاً من الزخارف اللفظية والبديعية، ومن السجع خصوصاً، إذ يرى أنه -أحياناً- يعيق الظهور المطلق الذي ينادي به مذهبياً، كما أنه نوع من التقليد الذي حاربه على نطاقات متعددة، وأخيراً، ربما كان للموقف الديني الذي يتحرّج من السجع - كما أشرنا في البداية- صدى في موقف ابن حزم.

(٤) " بعد ذلك أخرج ماء الأرض ومراعاها وأرسى الجبال فيها"^٢.

نرى هنا -أيضاً- تعمداً لتغيب السجع، فالآية ذاتها المُتناص معها مسجوعة، وربما يُفسر هذا بأن ابن حزم أراد حرمان هذا اليهودي من جمال الآية والسجع، لأنه يراه لا يستحق ذلك.

(٥) ويصف ابن حزم من يدعي التناقض على القرآن الكريم بأنه: "عديم العقل، سلب التمييز، مطموس عين القلب، ظليم الجهل"^٣.

نعتقد أن ابن حزم أراد أن يظهر مهاراته في إشاعة الحيوية الإيقاعية في النص، دون استخدام السجع أو التكلف، واختار لذلك صيغاً ومشتقات صرفية منسجمة معاً قامت بالدور نفسه.

(٦) "وما الذي جعل سائر عمله أصحّ من زناه وفتح بيوت الأوثان وتقريب القرابين"^٤.

واضح هنا مدى صدود ابن حزم عن السجع، فكلمة (القرابين) لو أفردت (قربان) لأصبحت سجعاً لكلمة (الأوثان). ممّا يؤكد لامبالاة ابن حزم بهذا اللون الزخرفي.

إذاً، كان اطراد النمط في كثير في المواضع في نصوص ابن حزم سيوصل إلى السجع دون كثير جهد، لكن ابن حزم أثر المعنى بحذفه من خلال ألفاظ كسرت السجع، وهذا يؤيد أنه ما كان يقدم السجع على حساب المعنى أبداً.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٢٧/٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ٤٦/٣.

^٣ - المصدر نفسه ص ٤٨/٣.

^٤ - المصدر نفسه ص ٦٢/٣.

٢- الإزدواج

الإزدواج هو: "تجانس اللفظتين المجاورتين، نحو: (من جدَّ وجد، ومن لَجَّ ولَجَّ)".^١ ويقول عنه (العسكري): "ولا يحسن منثور الكلام ولا يخلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الإزدواج، ولو استغنى كلام عن الإزدواج لكان القرآن".^٢

فالإزدواج من الحُلَى البديعية التي تعطي الكلام رواءً وبهاءً، وعذوبة في الإيقاع، من خلال التوافق النغمي والتقابل في الأوزان. وقد فضَّله كثيرٌ من المبدعين لأنهم يستطيعون أن يحققوا به أكبر قدر من الإيقاع والموسيقى دون أن يلجأوا إلى التكلف والصنعة، وبه يمكنون المعنى ويعطونه الطلاوة والصفاء.^٣

وفي تفضيل الإزدواج على السجع، لطبيعة العصر والناس، يروي (ابن شهيد) - صديق ابن حزم- في رسالة (التوابع والزوابع) أنَّ (عُثْبَةَ بن أرقم صاحب الجاحظ، وكُنْيَتُهُ أبو عُيَيْنَةَ) قال له: "إِنَّكَ لخطيب، وحائِكٌ للكلام مُجيد، لولا أَنَّكَ مُغْرَى بالسجع، فكلامك نظمٌ لا نثر. فقلتُ [أي ابن شهيد] في نفسي: قرَعَكَ، بالله، بقارِعتِه، وجاءك بمُماثلتِه. ثم قلت له: ليس هذا، أعزَّكَ اللهُ، مَنِّي جَهلاً بأمر السجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل، ولكِنِّي عدمتُ فرسان الكلام، ودُهِيتُ بغباوة أهل الزمان، وبالحرَّ أن أحرَّكهم بالإزدواج. ولو فرشتُ للكلام فيهم طولقاً، وتحركت لهم حركة مشوِّلم، لكان أرفع لي عندهم، وأولج في نفوسهم".^٤

وقد رافق هذا المصطلح كثير من الخلط، فأطلق على مفاهيم السجع والفواصل والمناسبة بين الكلمات في المعاني.^٥ وقد تحدث عنه الجاحظ تحت باب (تعاطفات الكلام)، وخلط القزويني والتفتازني بين المزاجية والإزدواج.^٦ وقد وضع (أبو هلال العسكري) بعض الضوابط لهذا الإزدواج؛ "والذي ينبغي أن يستعمل في هذا الباب ولا بد منه هو الإزدواج، فإن أمكن أن يكون كل فاصلتين على حرف واحد أو ثلاث أو أربع لا يتجاوز ذلك كان أحسن، فإن جاوز ذلك نُسب إلى التكلف".^٧

^١ - الهاشمي: جواهر البلاغة ص ٤٣٢ .

^٢ - العسكري: الصناعتين ص ٢٠١ .

^٣ - انظر: الحسن: الرسائل الأدبية النثرية ص ٤٠٠ .

^٤ - ابن شهيد: التوابع والزوابع ص ١١٦ .

^٥ - انظر مثلاً: تعريف الإزدواج في: ابن الجوزية: الفوائد المشوِّق ص ٢٢٥ .

^٦ - انظر: نبيل: الأساليب البلاغية في نفح الطيب للمقري ص ٦٧-٧٠ .

^٧ - العسكري: الصناعتين ص ٢٠٣ .

أمّا أهم العيوب التي تأتي في الإزدواج فهي التجميع؛ "وهو أن تكون فاصلة الجزء الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثاني... ومن عيوبه التطويل وهو أن تجيء بالجزء الأول طويلاً فتحتاج إلى إطالة الثاني ضرورة"^١.

فيما سبق رأينا ابن حزم غير مفتون بالسجع، ولا يتقصده أو يتكلفه، وهذا الإكتفاء أحد أسبابه الإزدواج، فقد استغنى به ابن حزم في كثير من المواضع عن السجع. وهنا سنرى في نماذج من الإزدواج في مناظرات ابن حزم كيف وقر الإزدواج للنص إيقاعاً موسيقياً وأكسبه رواءً وإشراقاً.

(١) وقد بحث ابن حزم عن كتاب ابن النغريله، وذلك حتى يقوم "بما أقدرني الله عز وجل من نصر دينه بلساني وفهمي، والذب عن ملته ببياني وعلمي"^٢. نلاحظ هنا تقصداً للإزدواج، فإنّ (نصر) تعدل (ذب)، و(دينه) تعدل (ملته)، و(لساني) تعدل (بياني)، و(فهمي) تعدل (علمي). غير أنّ هذا الإزدواج أكدّ المعاني الدائرة في الجملتين، فهما غاية المناظرة عند ابن حزم وهدفها.

(٢) ثم يصف ابن حزم ابن النغريله فيقول أنّه كان "عارياً إلا من المخرقة، سليماً إلا من الكذب، صفرّاً إلا من البهت"^٣.

إنّ الهجاء الذي يُعْغَفُ بالبلاغة يكون أكثر قبولاً للمتلقّي، بل وأكثر إيلاًماً للخصم، لذا نرى ابن حزم يلجأ إليه في هذا الموضع. كما أنّ الإزدواج يطلق لسان ابن حزم ولا يحصره بألفاظ معينة كما هو الحال في السجع، وبالتالي ستكون مساحة ألفاظ الهجاء أوسع وأكثر إتاحة له.

(٣) "وليت شعري أين كان هذا الخسيس المائق إذ اعترض بهذا الإعتراض على هذه الأنوار الساطعة والحقائق الظاهرة"^٤.

إنّ الإزدواج بين (الأنوار الساطعة) و(الحقائق الظاهرة) وقر للنص توافقاً نغمياً من خلال التقابل الوزني بين الكلمات، وأعطى للنص عذوبة إيقاعية، ما كثف المعنى المتضمن بالجملة.

^١ - العسكري: الصناعتين ص ٢٠٤.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٤٢.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٤٣.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٤٨.

(٤) وحين يمدح ابن حزم (صاحب البونت) يقول: "وأربأ به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه، ولا يدنو من المعالي دنوه، ولا يعلو في حميد الخلال علوه، بل أكتفي من مدحه باسمه المشهور وأجتزى من الإطالة في تقریظة بمنتماه المذكور، فحسبي بدينك العلمين دليلاً على سعيه المشكور، وفضله المشهور"^١.
 لقد زواج ابن حزم في كلامه بأن أتى بأفعال مضارعة على وزن واحد: (يسمو)، (يدنو)، (يعلو). كما زواج بين (المكارم) و(المعالي). كما استفاد أيضاً من المفعول المطلق في إشاعة إيقاع مركز: (سموه)، (دنوه)، (علوه).
 إنّ التذبذب بين تقصّد الأشكال البلاغية البديعية وبين الإنسيابية والعفوية يعكس موقف ابن حزم وهو يحاول التحرر من كل ما رفضه من تصنع، ويبرهن - في المقابل - على أنّه لم يفلت من أسلوب كُتاب عصره تماماً. وهذا التذبذب والمراوحة أعطى أسلوبه كثيراً من الفريدة والتميز والسهولة رغم جفاف مواضيع المناظرة في أحيان كثيرة.
 (٥) "... ثمّ الكاتب الفاضل ذو المآثر العالية والفضائل السامية والأعمال الزاكية والسعي المحمود أبو العباس"^٢.

يعتمد ابن حزم هنا الإزدواج لمدح واحد من الذين دافعوا عنه ووقفوا إلى جانبه. ونرى أنّ ابن حزم يعتمد إلى الإزدواج في المواضع التي يريد تكثيف المعنى بها أو تسليط مزيد من الضوء عليها، فالمقام هنا مقام ردّ جميل ومعروف، وابن حزم وفيّ غاية الوفاء لمن يسدي له ولو كلمة محبة. كما أنّ هذا الإزدواج هو فرصة لابن حزم لإظهار البراعة الفنية عند دون الاعتماد على السجع.

٣- الجنس

يُعرف (أبو هلال العسكري) التجنيس بأنّه: "أن يُورد المتكلم كلمتين تُجانس كل واحدة منهما صاحبتهما في تأليف حروفها"^٣.
 وسُمي هذا النوع من الكلام جناساً لأنّ حروف الكلمات تتركب من جنس واحد، فاللفظ والمعنى مختلف، أيّ هو اللفظ المشترك وما عدا ذلك فليس من التجنيس^٤. فقد يُظنّ أنّ ما

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧٢ .

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١٨٩ .

^٣ - العسكري: الصناعتين ص ٢٥٢.

^٤ - انظر: ابن الأثير: المثل السائر ص ١/٢٤١.

يدخل تحت الجنس أن يُؤتى بلفظة متعلقة بمعنى ثم تردد اللفظة بعينها بمعنى آخر في موضع آخر، فهذا يُسمى (الترديد) وليس الجنس^١.

وللتجنيس أنواع متعددة منها: "المماثلة: وهي أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعاني... والتجنيس المحقق: ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن، رَجَعَ إلى الاشتقاق أو لم يرجع... ومنها أن تتقدم الحروف أو تتأخر"^٢.

والتجنيس حلية تُزيّن النظم والنثر وهو: "غرة شامخة في وجه الكلام"^٣. ولقد لقي عناية المبدعين، وزينوا به شعرهم ونثرهم، وقد شهد الإبداع منذ القرن الرابع الهجري نقلة نوعية أصبح فيه عند كثير من الكتاب والشعراء مُتصنعاً ومبالغاً فيه، ومن أخص الفنون البيانية التي يهتمون بها^٤. ولنأخذ الآن بعضاً من مواطن الجنس في مناظرات ابن حزم.

(١) "سالكين في ذلك مسلك الحمية"^٥.

(٢) "لا اختلاف بين أهل الأديان عامة، فكيف أهل الإيمان خاصة، في أن الأنبياء عليهم السلام أفضل من مالك وأبي حنيفة وأحمد وداود..."^٦.

(٣) "وئفرض بها الفرائض"^٧.

(٤) "أما أصحاب الحديث فهم العالمون بناسخه ومنسوخه"^٨.

(٥) "ولا يبالون كيف أخذوا دينهم في إتباع ما وجدوا عليه آباءهم وكبراءهم"^٩.

(٦) "حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلناه"^{١٠}.

(٧) "وأما الغربُ فخالٍ من ذلك كله، صفر من جميعه إلا من الشاذّ والفاذّ"^{١١}.

(٨) "فهذا أسعدكم الله بطاعته، حقيقة الجواب فيما سألتكم عنه بالبرهان الواقع والدليل اللائح"^{١٢}.

^١ - انظر: ابن رشيق: العمدة ص ١/٣٥٢.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣٣٩-١/٣٤١.

^٣ - ابن الأثير: المثل السائر ص ١/٢٤١.

^٤ - انظر: الحسن: الرسائل الأدبية والنثرية ص ٤٠٨.

^٥ - ابن حزم: الرسالة الباهرة ص ١٣.

^٦ - المصدر نفسه ص ١٤.

^٧ - المصدر نفسه ص ٢٠.

^٨ - المصدر نفسه ص ٢١.

^٩ - المصدر نفسه ص ٢٢.

^{١٠} - المصدر نفسه ص ٢٣.

^{١١} - المصدر نفسه ص ٣٠.

^{١٢} - المصدر نفسه ص ٥٠.

هذه المواضع الثمانية هي - تقريباً - كل مواطن الجناس التي وردت في (الرسالة الباهرة) لابن حزم. وهذا الكم القليل يؤكد عدم اهتمام ابن حزم الكبير بهذا اللون البديعي، وإذا كان موقف ابن حزم العام من الزخارف يُفسر هذه الندرة في ورود الجناس في المناظرات، فإنّ مضمون الرسالة يفسر أيضاً شغل ابن حزم عنه، فالرسالة أو المناظرة هي معركة كلامية متعددة الجبهات، يحاول ابن حزم من خلالها الإثبات لأتباع المذاهب المتعددة أن ليس ثمة مذهب أفضل من الآخر، وإنّما المناط على النص لا سواه.

فالجناس بين كلمتي (الأديان) و(الإيمان) جناس ناقص يؤكد ادعاء ابن حزم إجماع أهل الأرض قاطبة على الأمر الذي يتكلم فيه، وهو أنّ الأنبياء خير من أصحاب المذاهب.

وثمة جناس فرَضَ التناسل بين كلمتي (أباءهم) و(كبراءهم) وبين كلمتي (ضب) و(خرب) وبين كلمتي (معذور) و(مأجور). أمّا الجناس بين كلمتي (الشاذ) و(الفاذ) فهو يؤكد النفي الذي قال به ابن حزم. وما تبقى من نماذج، فأكثرها جناس اشتقاقى، لا يرقى إلى الفنية، ويغلب عليه الوظيفية.

ولنأخذ - أيضاً - نماذج من مناظرة أخرى، هي مناظرة (البيان عن حقيقة الإيمان) فالجناس يُشكّل ظاهرة داخلها مقارنة بالمناظرات الأخرى.

(١) "انظر هل فرض الله النظر"¹.

تظهر قدرة ابن حزم على امتلاك زمام الكلام، وخبرته بالمصطلحات العلمية والكلامية، وتطويعها للأغراض الفنية بحيث يخفف من جفافها وجمودها.

(٢) "فمن سكنت نفسه إلى قوله عليه السلام، ولم تنازعه إلى دليل وقبله وقاله"². هنا يستثمر ابن حزم الجناس لغاية علمية بحتة، فالجناس جاء مُحددًا دقيقًا لمصطلح (الإيمان) فهو ذو شقين: الأول (قبله) أي اطمئن قلبه به، والآخر: (قاله) أي نطق به وظهر على عمله.

(٣) "لاستحلّ دم أبيه وولده وأهل بلده"³.

في هذا الجناس الناقص جمع ابن حزم بين العام والخاص، فالمؤمن الحق لن يدع دينه لو أدى ذلك إلى استحلال دم (ولده) وهو أكثر ما يخصّ الإنسان، وأدى كذلك إلى

¹ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٩٠.

² - المصدر نفسه ص ٣/١٩٣.

³ - المصدر نفسه ص ٣/١٩٦.

استحلال دم أهل (بلده) أي عموم الناس، فالجناس جاء لغاية استقصائية تشمل كل من يهتم الإنسان لأمرهم من الناس.

(٤) "لا يشك فيه مسلم موحد، ولا ملحد، في أنه عليه السلام لم يقل لأحد دعاه إلى الإسلام: لا تسلم حتى تستدل".^١

هنا -أيضاً- جاء الجناس خادماً للمعنى، ولم يكن عبئاً عليه مطلقاً، وقد أدى هذا الجناس وظيفة شمول جميع الناس بالحكم على اختلافهم وتناقضهم، سواء أكان (موحداً) أم (ملحداً)، وهذا من شأنه أن يعمق المعنى ويؤكدده عند المتلقي.

(٥) "وأنهم مطعون عليهم في أديانهم، مظنون بهم السوء في اعتقادهم".^٢
يقصد ابن حزم بهذا الكلام الفرقة التي تُوجب الاستدلال على الإيمان، وقد أثبتها صاحبه (ابن الحوات). فابن حزم في هذه الرسالة بصدد إقناعه بضلال الفرقة وفساد معتقدها، وقد اعتمد على الجناس ليؤثر في صاحبه، لما يملكه هذا الجناس من جرس ووقع جميل على أذن السامع.

٤ - التكرار

التكرار هو: "أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يعيده بعينه سواء كان اللفظ متفق المعنى أو مختلفاً، أو يأتي بمعنى ثم يعيده".^٣
ويعتبر (ابن الأثير) أن التكرار "من مقاتل علم البيان، وهو دقيق المأخذ، وحدّه هو: دلالة اللفظ على المعنى مردياً، وربما اشتبه على أكثر الناس بالإطناب مرة، وبالتطويل أخرى".^٤

ويقع التكرار في الأسماء والأفعال وحروف المعاني^٥. وأولى الكلام بالتكرار -كما ذهب ابن رشيق حين تحدث عن التكرار في الشعر- ما كان في الرثاء إظهاراً للتفجع، وفي الهجاء على سبيل التشهير بالمهجوّ والتهكم والتنقيص منه^٦.

ويقسم ابن الأثير التكرار إلى قسمين: أحدهما يوجد في اللفظ والمعنى، والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ، وكل قسم من هذه الأقسام يكون مفيداً أو غير مفيد. وينبّه ابن

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٠٠.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٢٠٠.

^٣ - ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ١١١.

^٤ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/١٤٦.

^٥ - انظر: ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ١١٤.

^٦ - انظر: ابن رشيق: العمدة ص ٩٦-٩٧/٢.

الأثير أنه لا يعني بالمفيد هنا ما يعنيه النحاة، بل يقصد بالمفيد ما يأتي لمعنى، وغير المفيد ما يأتي لغير معنى^١.

وهناك ما يسمى بال تكرار القبيح، وهو التكرار العاري من الفائدة "وهو لا يخلو إما أن يكون في المعنى وحده أو في المعنى واللفظ معاً. أمّا الأول فقد عابه بعضهم مطلقاً... وأمّا الآخر فقد أنفق على قبحه"^٢. كما يقبح على الكاتب "أن يكرر اسماً إلا على جهة التشويق والإستعذاب"^٣.

ويستفاد من التكرار تقرير الأمر في النفس: "وأعلم أنّ المفيد من التكرير يأتي في الكلام تأكيداً له وتشبيهاً من أمره، وإثماً يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك، إمّا مبالغة في مدحه أو في ذمّه أو غير ذلك"^٤، كما يضيفي التكرار ظلالاً من الجمال والبهجة والتأثير على النص، وإيضاح للأفكار والمعاني فيه.

أمّا التكرار عند ابن حزم، فيمثل ظاهرة ومنهجاً انتهجه في مناظراته ومؤلفاته، فإدراك ابن حزم أنّه مؤتمن على إيصال علمه إلى الناس عزّز التكرار عنده، لإفهام سامعيه، كما أنّ طول نفس ابن حزم وجلده جعل من هذه الظاهرة من أعمّ الظواهر عنده، إذ إنه يُعيد ويكرّر المسائل والإجابات إفهاماً وإقناعاً لسامعيه.

ويمكن إجمال فلسفة ابن حزم في التكرار بقوله: "ولكنّا لا نفقد مهذاراً يكرر السؤال فنكرر له الجواب، إقامة لحجة الله تعالى عليه"^٥. ولنأتي الآن على نماذج من التكرار عند ابن حزم، ولنقف أولاً عند بعض العبارات والكلمات كثيرة التردد والتكرار عند ابن حزم.

(١) دائماً ما يفتتح ابن حزم كلامه بعبارة: (قال أبو محمد علي بن أحمد بن حزم) وقد يختصرها فيقول: (قال أبو محمد) أو يقول اسمه دون كنيته (قال علي).

تشكل هذه الجملة ظاهرة أسلوبية، ولازمة مكررة في مناظرات ابن حزم، فتجدها في بداية كل مناظرة أو مؤلف أو رسالة أو ردّ، وستجدها داخل تلك المؤلفات كأنّها توقيع خاص بابن حزم، تفصل بين كل مسألة وأخرى، وبين فصل وآخر، وبين كلام ابن حزم وكلام مناظريه. وتعطي هذه اللازمة المكررة إنعاشاً للسامع ودفعاً للسأم والملل عنه، كما

^١ - انظر: ابن الأثير: المثل السائر ص ١٤٦-٢/١٦٧.

^٢ - ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ١١٥.

^٣ - ابن رشيق: العمدة ص ٢/٩٣.

^٤ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/١٤٧.

^٥ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٠٢.

تعطي تأكيداً وأهمية لما سيأتي بعدها، وتضفي على كلام ابن حزم مزيداً من الجلال والتشويق، كما تشكل فواصل إيقاعية كبرى داخل النصوص.

(٢) وكثير ما يردد ابن حزم عبارة (حسبنا الله ونعم الوكيل)، وهي تشكل مع ما شابهها من عبارات الإحتساب ظاهرة في مناظرات ابن حزم، ففي رسالة (الإمامة)-على قصرها- تتكرر أكثر من ست مرات.

يوظف ابن حزم هذه الجملة كقفل أو خاتمة للمسائل، ينتقل بعدها إلى المسألة التالية لها، ويمكن ردّ سبب تكرار ابن حزم لهذه الجملة إلى الحالة النفسية وضيق صدره بخصمه، فعلى الرغم أنّ حُصومة المناظر غير ظاهرة في هذه المناظرة، فهو سائل عن أحكام الإمامة، إلا أنّه في الحقيقة متذهب على مذهب معين، ولا يسأل سؤال المتعلم.

كما أنّ تكرار هذه العبارة يشير إلى إدراك ابن حزم أنّ هؤلاء المناظرين لا يتراجعون عن مواقفهم وآرائهم، حتى وإن ظهر لهم الحق. فهذه العبارة تخفف الكمد والضيق الذي لاقاه ابن حزم من مناظريه.

(٣) (ثم ذكرت...) (ثم قلت...). (أما قولك...). تتكرر هذه العبارات في مناظرات ابن حزم وفي رسالة (الإمامة) على وجه التحديد، والحديث عنها مشابه للحديث عن عبارة (قال أبو محمد) التي ذكرناها آنفاً.

كما يشير هذا التكرار إلى منهجية ابن حزم الواضحة الصارمة في التأليف، والتي هي امتداد للظاهرية التي يعتنقها، ويفيد هذا التكرار وتلك المنهجية بإبراز آراء طرفي المناظرة وأقوالهم، وصبغها بالموضوعية من خلال النقل الحرفي لأقوال الخصوم، كما أنّ هذا التكرار يضيف عناصر جمالية وتشويقية على النص.

(٤) (فإن كنت لا تستجيز...). (فإن كنت لا ترضى...). (فإن كنت ترغب بنفسك...). يختم ابن حزم أكثر ردوده في رسالة الإمامة بمثل هذه الجمل، وكأنّه يتنصل من تبعات مواقف الخصوم، ويرسل من خلالها صدمات متوالية لذهن المناظر لعله يتبع الحق!

(٥) (فاعلم يا أخي...). (فاعلم يا هذا...). (فاعلم أنّ هذا...). (واعلم يا أخي...). تؤكد هذه التكرارات رغبة ابن حزم في استمالة مناظريه، فيخاطبهم خطاب الأخ لأخيه، لأنّه يلمحُ منهم صدقاً ورغبة في التعلم. لكنّه إن لمس أن في السؤال غاية غير بريئة قال مخاطباً مناظره: (فاعلم يا هذا)، تقليلًا وخطأً من شأن هذا المتشكك.

٦) يفتح ابن حزم أغلب ردوده في مناظرة (رسالتين أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال تعنيف) بقوله: (أما قولهم...) أو (ثم قالوا...)، ويختم بقوله: (فالجواب وبالله التوفيق...) أو (والجواب...). تكررت هذه العبارات قريباً من خمسين مرة في هذه المناظرة وحدها، وهذا يشير إلى منهجية ابن حزم التأليفية والتي اكتسبها بأثر من علم المنطق.

وعلاوة على الاستفادة من هذا التكرار بالمرآحة والتناوب في الأصوات، فإنه يؤكد ثقة ابن حزم بنفسه، حين يورد آراء خصومه دون خشية منها. كما تؤكد كلمة (الجواب) الثقة الكبيرة عند ابن حزم بعلمه واطلاعه، وهذه الثقة لا تنفصل عن الاستعانة بالله تعالى، والتي تظهر من خلال تكراره (وبالله التوفيق).

٧) (ونعوذ بالله من الخذلان). يمكن قراءة تكرار هذه الجملة على أنه إيمان من ابن حزم بمحدودية القدرة البشرية، واحتمالية الخطأ عليها، لكن وبما أن منهجه يفرض عليه اليقينية المعرفية، فإن مثل هذه العبارات ستغدو شكلية أكثر منها جوهرية، إذ أنه يرى الخذلان أمراً ملموساً يمكن اجتنابه بإتباع خطوات معينة، وبالتالي، فقد اقتصر دور التكرار هنا على البعد الإيقاعي، ووقر للمناظرة فواصل سمعية كبرى، تهيب السامع للانتقال من مسألة إلى أخرى.

٨) (ولله الحمد). (الحمد لله). (والحمد لله رب العالمين). (لله الحمد كثيراً)... هذه العبارات كثيرة التكرار عند ابن حزم، وهي تعطي للنص إيقاعاً وانضباطاً صوتياً. ويلجأ ابن حزم لمثل هذه العبارات حين يفهم خصمه، أو حين يمدحه هذا الخصم من حيث لا يدري، أو حين يذكر علمه، أو حين يتبرأ من تهمة ما، وغير ذلك. ويمكن أن نعتبر أن فائدة هذه التكرارات للنص كفاية المفاصل للجسد، تعطيه الوحدة والإنسجام مع الإبقاء على مرونته.

إذاً فقد أسهمت التكرارات في لمّ شتات المناظرة، وتنظيم الأدوار فيها، كما أعطت لابن حزم سيطرة على نصوصه نجا بها من الإستطراد والتشتت، مما جعل مناظراته سهلة المأخذ، واضحة المعالم. وقد كان - بالتأكيد - لمنهجه الظاهري أثر في هذا الأسلوب التألفي، مما جعل ابن حزم صاحب طريق تأليفية خاصة، تجمع بين العمق والسهولة.

ولنتوقف الآن عند نوع آخر من التكرار في مناظرات ابن حزم، وهو تكرار الترادف، حيث يأتي ابن حزم بلفظة ويتبعها بأخرى مشابهة تؤدي المعنى نفسه تقريباً.

(١) "قرأت - علمنا الله وإياك ما يزلفنا لديه- سؤالك ووقفت عليه"^١.

إنّ هذا التكرار جاء لغرض تأكيد، حتى يطمئن الخصم أنّ ابن حزم (قرأ) سؤاله، وفهمه حقّ الفهم، إذ أنّه (وقفَ عليه)، وبالتالي فإنّ الإجابة ستتسم بالدقة والإنضباط.

(٢) "ولا خلاف بين أحد من المسلمين أنّ من استحل الخمر قليلها وكثيرها فهو كافر مشرك مرتد"^٢.

يمكن اعتبار هذا التكرار لألفاظ التكفير بأنّه جزء من موقف ابن حزم من انتشار شرب الخمر في عصره. كما أنّ هذا التكرار - من وجهة أخرى- أدى دوراً علمياً، فاستحلال الخمر قد وقف منه علماء الإسلام موقفاً رافضاً، لكن الأحكام اختلفت تبعاً لذلك، وبما أنّ ابن حزم يذكر هنا (الإجماع) فإنّه مضطر لنقل آراء الجميع على اختلافها، فلجأ إلى التكرار

(٣) "أمّا بعد، فإنّ بعض من تكلم بما وقرّ في نفسه بغير حُجة، وانطلق به لسانه بغير برهان كتب كتاباً خاطبنا فيه معنفاً"^٣.

إنّ (تكلم) و (انطلق) تشكل تكراراً للمعنى بألفاظ متعددة، وفي هذا التكرار نلاحظ الغضب الجَمّ واشمئزاز ابن حزم من كلام الخصم، حيث يعوزه الدليل والبرهان.

(٤) "ومن ترك شرعاً صحيحاً لدعواه الكاذبة أنّ ههنا حديثاً قد نسخه ولا يدري صحة ذلك ولا يعرفه، فقد أتى أكبر الكبائر"^٤.

يظهر هذا التكرار دقة ابن حزم وحذره البالغ، لأنّ الحكم المترتب على المسألة ليس هيناً، وبالتالي فإنّه يؤكد أنّ هذا الحكم ينطبق إذا كان الشخص (يدري) و(يعرف).

(٥) "فليعلموا أنّهم لم يقتدوا بالصحابّة والتابعين والسلف المرضيين، ولا سلكوا طريقهم، ولا أخذوا بسيرتهم"^٥.

هذا التكرار يؤكد النفي، ويتناسب مع نظرة ابن حزم لهؤلاء الخصوم، حيث يؤكد عدم إتباعهم للصحابّة والتابعين.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٠٧.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٢٠٩.

^٣ - المصدر نفسه ابن ص ٣/٧٣.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٧٥.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٧٨.

(٦) "وواجب عرض أقوالهم على القرآن والسنة، فلأيّها شهد القرآنُ والسنة أخذ بقوله وترك ما عداه"^١.

مع أنّ من الممكن الإستغناء عن تكرار (القرآن والسنة) وذلك بإحلال الضمير المتصل بدلاً منها، لكنّ ابن حزم أراد إبراز هذين المصدرين بتكرارهما. ثمة نماذج أخرى مشابهة لما أوردناه، لذا سنقتصر على ما قدمنا، مع التأكيد على أنّ إيمان ابن حزم بغائية اللغة أبعد عن التكرار بشكل ملحوظ، وساعده على ذلك قدراته اللغوية والبيانية، مما جعل التكرار عنده - في غالبه - مفيداً ذا غاية وهدف.

٥- التقسيم

ذكر (ابن رشيق) اختلاف الناس في التقسيم؛ فبعضهم يرى أنّه استقصاء المبدع جميع أقسام ما ابتدأ به، وبعضهم يراه في تنسيق الكلام بعضه على بعض، وبعضهم يراه في التفصيل^٢. ويأتي ابن رشيق بنموذج للتقسيم: "ومن أشرف المنثور في هذا الباب قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم: (وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت). فلم يُبق عليه الصلاة والسلام قسماً رابعاً لو طلب يوجد"^٣.

فالتقسيم إذا هو أن يُذكر متعدد، ثم يُضاف إلى كل فرد من أفراد ما له على جهة التعيين، وقد يُطلق التقسيم على ذكر أحوال الشيء، مضافاً إلى كل قسم ما يليق به^٤. وبما أنّ التقسيم آلة للحصر ومظنة للإحاطة بالشيء فإنّ تداخلاً قد يحدث بينه وبين التقسيم الفلسفي، وفي هذا ينقل (ابن الجوزية) عن (ابن الأثير) قوله: "إنّ أرباب علم البيان لم يريدوا بالتقسيم القسمة العقلية كما يذهب إليه المتكلمون، فإنّ القسمة العقلية تقتضي أشياء مستحيلة... وإلّا أرادوا بالتقسيم ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده وهو أنّ يأتي المؤلف إلى جميع أقسام الكلم المحتملة فيستوفيها غير تارك منها قسماً واحداً"^٥. إنّ التقسيم يمنح النص إيقاعاً وترتيباً وتنظيماً، ولكّنه يرتبط بشكل مباشر مع المنطق والفلسفة، وقد كان وروده في رسالة (الرد على الكندي الفيلسوف) لافتاً للانتباه،

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٧٨.

^٢ - انظر: ابن رشيق: العمدة ص ٢٥-٢/٣٩.

^٣ - المصدر نفسه ص ٢/٣٠. وانظر الحديث بمعناه في صحيح مسلم، حديث رقم ٢٩٥٨ ص ٣٦٩.

^٤ - انظر: أبو العدوس: البلاغة العربية ص ٢٨١.

^٥ - ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ٩١.

حيث إنّ الرسالة هي مناظرة مع فيلسوف، فاستخدم ابن حزم معه أدوات وحججا فلسفية من جنس ما يؤمن به. وعليه، فلا بد أن نرى ما هي علاقة ابن حزم بالفلسفة والمنطق عموماً.

لقد هوجم ابن حزم كثيراً لتعاطيه الفلسفة والمنطق، واتّهم بالمروق، وأتهم كذلك بأنه يتعاطى علماً لا يحسنه، لكنّ الحقيقة أنّ ابن حزم أراد أن يستثمر أدوات هذا العلم في الوصول إلى منهجية علمية منضبطة، وبذلك أثار عليه الفقهاء من جهة، والفلاسفة من جهة أخرى.

فما كانت محاولة ابن حزم (لأسلمة) هذا العلم وتخليصه من الإلحاد والكفر الذي يعترّيه إلا ضمن منهجه العام في استثمار العلوم لخدمة بعضها، وطريقة لمواجهة الفلاسفة الذين لم يجدوا من يردّ عليهم من الفقهاء والعلماء لأنّ الطرفين يرفضان بعضهما مطلقاً.

إذاً، فقد أدى هذا الموقف من التقسيم العقلي والفلسفي إلى موقف مقابل على مستوى الكتابة وطريقة المناظرة، حكمت ابن حزم بمنطقية صارمة في عرض أفكاره وترتيبها، وبالتالي انعكس ذلك فنياً على النصوص. ولنرى بعضاً من هذه النماذج.

(١) "... وهي الطبائع الأربع المتأتية السابقة للخلق من ربها عز وجل: الأرض والماء والنار والهواء".^١

إنّ مثل هذه التقسيمات ستمنح القارئ قدرة أكبر على تصوّر الأفكار، وستُبعد النص عن الرتابة، وبالتالي، سيُمنح حيوية وتنوعاً. ومن زاوية أخرى، سيجعل هذا التقسيم النصّ أكثر سهولة وبساطة، خاصة إذا تذكرنا أنّ ابن حزم يناظر في رسالته هذه الفلاسفة، حيث الوعورة والتعقيد هي الطابع العام على هذه العلوم.

(٢) "... فله موضوع هو الجنس القابل لصورته وصورة غيره، ومحمول هو الصورة الخاصية له دون غيره. فالنوع كله: موضوع ومحمول ...".^٢

إنّ مثل هذه التجزئة والتقسيم ستجعل النصّ أكثر وضوحاً وظهوراً، وهو تماماً ما يريده ابن حزم، حيث يرفض مذهب الغموض والتعقيد. كما يقترب التقسيم بالنص من القطعية ويبتعد به عن الظنية.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٧١.

^٢ - المصدر نفسه ص ٤/٣٦٧.

(٣) "ألا ترى المركّب المعلول المنضدّ ذا أجزاء لا محالة بعضها مخالف في الطبع لبعض: حار وبارد، ورطب ويابس، وثقيل راسب، وخفيف طافٍ، ومتوسط بينهما شبيه بالطرفين كليهما، وشديد غاية ضعيف بته، ومتوسط بينهما قد توسط بين طرفيها..."^١. إنّ التقسيم عند ابن حزم أدى دوراً علمياً بحثاً، وابتعد بقدر كبير عن الجمالية أو الفنية. فرغم ما كان يمنحه للنص - أحياناً - من هذه الجمالية، وكسر للجمود والرتابة، فلا يمكن اعتباره مقصوداً أو أداة أدبية أو زخرفية.

في النهاية نقول أنّ التقسيم أكد علم ابن حزم واطلاعه الواسع، وحجم محفوظه الكبير، وفهمه الدقيق. كما كان هذا التقسيم بوصلة للنص، ويللم أطرافه ويضمن سيره في اتجاه واحد، ويبعده عن الإستطراد والتشتت، وهذا من شأنه أن يسهّل على ابن حزم الردّ على الخصم، ويسهل على هذا الخصم استيعاب الردّ وفهمه، مع منح النص إيقاعاً وفواصل يمكن أن تتسلل إليها بعض من الأدبية والفنية.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣٧٤/٤.

الفصل الثاني

التصوير البلاغي في مناظرات ابن حزم

١- التشبيه

٢- الإستعارة

٣- المجاز

٤- الكناية

٥- الطباق

٦- المقابلة

١ - التشبيه

التشبيه هو: "الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه أو لم ينب... ويقع تشبيه الشيء بالشيء من وجه واحد"^١. ويُعرّف ابن حزم التشبيه: "أن يشبّه شيء بشيء في بعض صفاته، وهذا لا يوجب في الدين حكماً أصلاً، وهو أصل القياس وهو باطل لأنّ كل ما في العالم فمشبّه بعضه لبعض ولا بد من وجه أو وجوه، ومخالف أيضاً لبعض ولا بد من وجه من الوجوه وهو أيضاً التمثيل"^٢.

ويكون التشبيه من جهات عدة لا من جميعها، لأنّه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه^٣. وللتشبيه أقسام أربعة: الأول: تشبيه محسوس بمحسوس، والثاني: تشبيه معقول بمعقول، والثالث تشبيه معقول بمحسوس، والأخير: تشبيه محسوس بمعقول^٤. ويدخل في التشبيه ما يسمى بالتشبيه الضمني، وفيه لا يكون المشبّه والمشبّه به على الصورة المعروفة، بل يُلمحان في التركيب، كما في قول أبي فراس الحمداني (من الطويل):

سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جَدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءُ يُقْتَفَدُ الْبَذْرُ^٥

وأجود التشبيه وأكثره بلاغة أربعة أوجه: "أحدهما إخراج ما لا يقع عليه الحاسة، وهو قول الله عز وجل: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً) [النور: ٣٩]... والوجه الآخر إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، كقوله تعالى: (وَإِذْ تَنْقَضَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ) [الأعراف: ١٧١]... والوجه الثالث إخراج ما لا يُعرف بالبدئية إلى ما يُعرف بها، فمن هذا قوله تعالى: (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) [آل عمران: ١٣٣]... والوجه الرابع: إخراج ما لا قوة له في الصفة على ما له قوة فيها، كقول تعالى: (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) (الرحمن: ٢٤)^٦.

وقد يأتي التشبيه مقلوباً، وهو أن يُجعل المشبه به مشبهاً والمشبه مشبهاً به. ويسمى (غلبة الفروع على الأصول) والغرض منه المبالغة^٨. وهناك تشبيه قبيح وهو ما

^١ - العسكري: الصناعتين ص ١٨٥.

^٢ - ابن حزم: الإحكام ص ١/٦٣.

^٣ - انظر: ابن رشيق: العمدة ص ١/٣٠٠.

^٤ - انظر: ابن الجوزية: الفوائد المشوق ص ٧٥.

^٥ - انظر: ابن رشيق: العمدة ص ١٠١-١٠٢. وانظر البيت في: الحمداني: ديوان أبي فراس الحمداني، بيت: ٨٤ ص ١٥٦.

^٦ - وردت: يُعرب وصوابها يُعرف.

^٧ - انظر: العسكري: الصناعتين ص ١٨٦-١٨٧.

^٨ - انظر: ابن الأثير: المثل السائر ص ١/٤٠٣.

أخرج الأوضح إلى الاغمض^١، لذا فإنّ هذا النوع من أنواع علم البلاغة والبيان "مستوعر المذهب، وهو مقتل من مقاتل البلاغة، وسبب ذلك أن حمل الشيء على الشيء بالمماثلة إمّا صورة وإمّا معنى يعزّ صوابه وتعمّر الإجادة فيه، وقلما أكثر منه أحد إلا عثر"^٢.

وفائدة التشبيه المبالغة والبيان والإيجاز^٣، كما أنّك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنّه أثبت في الخيال وفي النفس، وأؤكد في الترغيب وفي التنفير لأنّك إنّما تشبه بصورة أحسن أو أقبح مما هو مثبت في النفس^٤.

أمّا أدوات التشبيه فقد تكون أسماءً أو أفعالاً أو حروفاً. "أمّا الأسماء فمثل، بسكون الثاء وتحريكها، وشبّه، بسكون الباء وتحريكها، وأشباه ذلك، وأمّا الأفعال كحسبت وخلت ويحسب ويخال ونظائرهما، أمّا الحروف فالكاف"^٥. وينقسم التشبيه اعتباراً إلى أداة التشبيه إلى تشبيه مُرسل وتشبيه مؤكد؛ فالمرسل هو ما ذكر فيه أداة التشبيه، والمؤكد ما حذفته منه أداة التشبيه^٦. ولنأخذ بعضاً من نماذج التشبيه في مناظرات ابن حزم:

(١) "أمّا بعد، فإنّ كتابين وردا عليّ لم يكتب كاتبهما اسمه فيهما، فكانا كالشيء المسروق المجحود وكابن الغيّة المنبوذ، كلاهما تنهاده الروامس بالسهب الطوامس"^٧. في هذا التشبيه صورة منقّرة لهذين الكتابين الواردين، وقد استخدم ابن حزم مُشَبَّهين لمشبه واحد، زيادة في الإلحاح على الصورة. وقد جمع في هذا التشبيه المفصل أركان التشبيه كافة، وربما يؤكد هذا التفصيل هاجس ابن حزم وقلقه المعرفي، فهو لا يقبل بأيّ علم أو معرفة ويسلم بها حتى يمحّصها، وقد انتقل هذا الهاجس إلى منهجه التأليفي، فكان لا يقول أو يدعي شيئاً حتى يستوفي الكلام والإستدلال عليه، وبالتالي، جاءت الصورة جاهزة للسامع، حتى يطمئن ابن حزم أنّ أيّ سوء فهم أو لبس لن يحدث.

^١ - انظر: ابن رشيق: العمدة ص ١/٣٠.

^٢ - ابن الأثير: المثل السائر ص ١/٣٧٨.

^٣ - انظر: المصدر نفسه ص ١/٣٧٨.

^٤ - انظر: المصدر نفسه ص ١/٣٧٨.

^٥ - ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ٥٩.

^٦ - انظر: عتيق: علم البيان ص ٨٠.

^٧ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١١٩.

(٢) "فليعلم الكاذب المستتر باسمه استتار الهرة بما يخرج منها"^١.

في هذا التشبيه التمثيلي صورة غريبة، تُظهر قبح هذا السائل والعيب الذي وقع فيه، فكما أنّ الهرة تبتعد عن الأعين لتقضي حاجتها، فإنّ السائل يخفي نفسه لأنّ ما يفعله قبيح لا يحسّن رأيته كحال الهرة. وتُظهر هذه الصورة ضيق ابن حزم بالخفاء والباطن، وتُفرته من الخصوم الذين يهربون من المواجهة، لأنّه يعتبر ذلك جبنًا وقلة حيلة. كما يمكننا ملاحظة استفادة ابن حزم من بيئته ومحيطه في تكوين الصور التشبيهية، واختياره مكوناتها مما هو قريب منه ومن متلقيه، لتكون أقرب مأخذًا وأسهل فهمًا.

(٣) "فليعلم هذا الجاهل السخيف وأشباهه أنّ هذه الصورة عندهم لا عندنا، وإنّ ذمهم زين لمن ذمّوه ... وإنّما هم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً"^٢.

يردّ ابن حزم بهذه الصورة التشبيهية الحادة على نحو مقارب لما هوجم به، فقد نعتّه هؤلاء الخصوم بأنّ فيه "قلة الدين وضعف العقل، وقلة التمييز والتحصيل"^٣، وعليه، جاء تشبيه ابن حزم لهم مقاربًا لما نعتوه به، وزاد عليهم بتناصه في هذا التشبيه مع التشبيه القرآني للكفار بأنّهم كالأنعام ضلالًا وتيهًا، مما أعطى تشبيه ابن حزم ميزة وتفوقًا.

وهنا -أيضًا- نلاحظ أنّ ابن حزم جاء بتشبيه مكتمل الأركان، وهذا يؤكد الهاجس المعرفي الذي ذكرناه آنفًا، ويُظهر عدم ثقة ابن حزم بمتلقيه، فهو لا يترك جزءًا من صورته دون توضيح معتمدًا على ذكاء المتلقي أو خياله، إنّما يأتي بها كاملة مفصلة. (٤) "فليعلم هذا أنّ هذه صفاته، وأما تشنيعه بما ذكر فمنزلة نهيق ناهق وعواء عاو"^٤.

في هذا التشبيه المرسل المجمل، نرى صورة الخصم منحنّة سفلية، كغيرها من الصورة التي كان يرسمها ابن حزم لخصومه، فهذا الخصم وبما يأتي به من كلام وحجج ما هو إلا (حيوان) ينهق ويعوي، وما كلامه إلا نهيق وعواء وإزعاج.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١١٩.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١٢٢.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٢٢.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٢٥.

إنّ هذه الصور التشبيهية -على فجاجتها وقلة لباققتها- نتاج طبيعي لإنغلاق أطراف المناظرة وهبوط المستوى التناظري إلى درجات غير مقبولة.

(٥) "وأما قلة تمييزه [يعني الخصم] وتحصيله: فتهديده من لا يحفل به

عوى ليروع البدرا وما كلب وإن نبأ".^١

(٦) "وأما وعيدك بأجوبة العلماء في أقطار الأرض:

فتلك أزاليل المنى وغرورها سرت بكم في الترهات البسابس"^٢

في هذين النموذجين، يعتمد ابن حزم على النصوص الشعرية جزءاً من الصورة التشبيهية التي يرسمها، وهذا يضيف على صورته حيوية وتأثيراً أكبر، خاصة أنّ الردّ جاء على محاولة تخويف ابن حزم، وهي قضية شعورية تحتاج في الردّ عليها إلى أسلوب أكثر قدرة على حمل المشاعر كالأبيات الشعرية.

وهنا نرى اعتماد ابن حزم على الصورة الحيوانية، ونعت الخصم بها، كما نرى اعتماده مصطلحات أقل ظهوراً وانتشاراً، تشير إلى ثقافته اللغوية الواسعة.

وهكذا، فقد اعتمد ابن حزم على التشبيهات لرسم صور حسية تعين المتلقي على الفهم، لكنّ هذا الإ اعتماد لا يرقى إلى أن يجعلنا نعدّ التشبيه ظاهرة كبرى في مناظرات ابن حزم، فقد قلّت وندرت في كثير منها^٣. وقد يفهم هذا الابتعاد عن التشبيه بأنه محاولة للإستغناء عن التشبيه لصالح الأسلوب المرسل الذي عوّل عليه ابن حزم في الإفهام والإقناع، سيّما أنّه يتسم بالسلاسة والسهولة، وبيتعد عن الغموض والتعقيد الذي يمكن أن يتركه التشبيه أحياناً.

٢- الاستعارة

يُعرّف صاحب (الصناعتين) الاستعارة بأنها "نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض. وذلك الغرض إمّا أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه وتأكيد المبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو يحسن المعرض الذي يبرز فيه"^٤. فالاستعارة صورة من صور التوسّع والمجاز في الكلام، وهي راجعة إلى

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٢٢-١٢٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ١٢٦.

البسابس: الكذب، والترهات البسابس: الباطل

^٣ - انظر مثلاً: رسالة الرد على الهاتف من بعد.

^٤ - العسكري: الصناعتين ص ٢٠٨-٢٠٩.

المعنى لا إلى اللفظ^١، ولا بد عند نقل المعنى من لفظ إلى لفظ آخر أن يكون بينهما مشاركة "مع طي ذكر المنقول إليه لأنه إذا احترز فيه هذا الإحتراز اختص الإستعارة، وكان حداً له دون التشبيه"^٢.

لذا فإنّ الإستعارة هي تشبيه حُذف أحد طرفيه، فيكون المشبه به مستعاراً منه، والمشبه مستعاراً له، واللفظ مستعاراً، وتكون قرينة الإستعارة التي تمنع من إرادة المعنى الحقيقي إمّا لفظية أو حالية^٣.

و"الإستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع، وليس على الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها"^٤، وهي شديدة التأثير في النص فهي "تفعل في نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة"^٥. فبلاغة الإستعارة تكون في الابتكار وحثّ الخيال على الإنطلاق، وفيها تناسل للتشبيه، مما يحمل السامع على تخيل الصورة، ونسيان التشبيه المخفي والمستور داخلها^٦.

وقد عرّف الكتاب على مر العصور أهمية الإستعارة، ففي القرن الرابع الهجري مثلاً، تنبّه الكتاب إلى قيمة هذه الأداة وتأثيرها على الخيال، وقدرتها التصويرية الكبيرة. فأكثرُوا من استخدامها في مراسلاتهم وكتاباتهم، وأجادوا في الإتيان بصورة مبتدعة خلابة، حتى أنّ الدارس ليعجب من قدرتهم تلك^٧.

وقبل أن نأتي على نماذج استعارية من مناظرات ابن حزم، لا بد من الوقوف عند ملحوظة كبرى، وهي أنّ أكثر اعتناء ابن حزم بالبلاغة والبيان وفنون البديع يكون في مقدمات مناظراته وردوده، ونعتقد أنّ الأمر مشابه لما يحصل في مقدمة القصيدة العربية، سيما أنّ أكثر القصائد تتحدث - بعد المقدمة - عن أغراض أقل صلة بالشاعر كالممدح والهجاء وغيرهما، لذا فإنّنا نظن أنّ الأمر ذاته حصل في مقدمات مناظرات ابن حزم، حيث وجد فيها مساحة أقل ازدحاماً أراد أن يُظهر فيها براعته وفنيته. أمّا النماذج الإستعارية الواردة في مناظرات ابن حزم وردوده فمنها.

^١ - انظر: عتيق: علم البيان ص ١٩٦.

^٢ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٣٥١/١.

^٣ - انظر: عتيق: علم البيان ص ١٧٥-١٧٦.

^٤ - ابن رشيق: العمدة ص ٢٨٠.

^٥ - العسكري: الصناعتين ص ١/٢١٠.

^٦ - انظر: الهاشمي: جواهر البلاغة ص ٣٦٦-٣٦٧.

^٧ - انظر: الحسن الرسائل الأدبية النثرية ص ٤٧٣.

(١) "... ثم تعدى ذلك إلى أن أخلى أرباب العلوم منا من أن يكون لهم تأليف يحيي ذكرهم ويبقي علمهم، بل قطع على أن كل واحد مات فدفن علمه معه".^١

تأتي الإستعارة التمثيلية (تأليف يحيي ذكرهم) لتصوّر موقف ابن حزم ونظرته للكتاب، حيث يعطيه بُعداً إعجازياً خارقاً، يرفع من قيمة الفرد والأمة، وكأنّ هذه العملية إحياء للأموات، وبث للحياة فيهم.

وفي الصورة الإستعارية (مات فدفن علمه معه) رسمٌ يوضح الكارثية والخسارة الكبيرة، حين يموت العالم دون أن يُدون علمه ويوثقه، فالعلم هنا إنسان يُدفن ويُطوى إلى الأبد.

وقبل المضي مع نماذج الإستعارة عند ابن حزم، لا بد أن نتوقف مرة أخرى عند مسألة نقل ابن حزم الكلام عن لسان خصمه، فالنموذج الذي أوردناه آنفاً ما هو إلا حكاية عن أقوال الخصوم، فالإي مدى يمكن أن يُمثل هذا النقل بلاغة ابن حزم وأسلوبه؟

إننا نعتقد أنّ هذا النقل يمثل أسلوب ابن حزم، فابن حزم له منهجان في نقل أقوال مناظريه؛ فإما أن ينقلها بحرفيتها على (غثائتها) - كما يصفها هو - وهنا لا يمثل هذا النقل أسلوب ابن حزم إطلاقاً، والأسلوب الآخر أن يدرج مضامين كلامهم بلغته وأسلوبه هو، وهذا بالتأكيد يمثل أسلوب ابن حزم، لا أسلوب خصومه.

(٢) ويمدح ابن حزم صاحب (البونت) فيقول: "أطال الله بقاءه، وأدام اعتلاءه، ولا عطلّ الحامدين من تحليهم بحلاه، ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه".^٢ في هذه الإستعارة (تحليهم بحلاه) يجعل ابن حزم من عطايا ممدوحه حلياً وذهباً يتزين بها الحامدون، ففي هذه الصورة الإستعارية تأكيد للمدح ووفاء وردّ لجميل صاحب (البونت) (محمد بن عبد الله بن قاسم) الذي دافع عن ابن حزم وذاد عنه.

(٣) "... فصرفت عنان الخطاب إليك".^٣

توضح هذه الإستعارة منهجاً عاماً عند ابن حزم في مناظراته، فقد تراجع عن توجيه ردّه إلى (ابن الربيب) الذي عاب على أهل الأندلس عدم تأليف كتاب يجمع أسماء العلماء والأدباء، فقد مات ابن الربيب هذا. وقد صور ابن حزم حاله وقد تراجع عن

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧١.

^٢ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٢.

^٣ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٢.

الرد على شخص بعينه بحال الفارس الممسك بزمام فرسه، وقد وجهها وجهة أخرى غير التي كان يقصد إليها.

إنّ هذه الإستعارة، تؤكد للمتلقي وبأسلوب تصويري حيوي أنّ ابن حزم ما كان يُصقّي حساباته ويستهدف شخوص مناظريه من خلال مناظراته، فحتى حين مات هذا المناظر، بقيت الحاجة للرد قائمة، لأنّ ابن حزم يعتبر ردّه رسالة يجب أن تصل إلى الناس، وأمانة يجب أن تؤدي إليهم.

وثمة أمر آخر يُلمح من هذه الإشارة، فالمناظرة أشبه ما تكون بالقتال وركوب الخيل، وبذل الجهد في توجيه هذه الخيل وصرفها إلى الوجهة الصحيحة، فالمناظرة ليست عملاً سهلاً كما تخبرنا هذه الاستعارة.

(٤) ويوجه ابن حزمه كلامه إلى صاحب (البونت) فيقول: "وإن كنت في إخباري إياك بما أرسلته في كتابي هذا كمهدٍ إلى البركان نار الحباب".^١

تدل هذه الإستعارة التمثيلية على تواضع أصيل في نفس ابن حزم، فما العلم الذي قدّمه ابن حزم وأهداه إلى مخاطبه سوى نار صغيرة إذا قيست ببركان كبير.

(٥) وحين يتحدث ابن حزم عن بغداد يقول أنّها: "المحلّة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف".^٢

نلاحظ هنا أنّ الإستعارة التمثيلية أسهمت في حركيّة النص والنأي به عن المستوى الجاف والسطحي من اللغة، وحفّزت المتلقي على المتابعة بما رسمته في خياله من صورة وحركة. فقد جعل ابن حزم باستعارة هذه ميادين العلم ميادين معارك وعزّ، يتسابق النّاس إلى حمل ألويتها وراياتها.

(٦) ويصف ابن حزم (أبا عبد الرحمن بقي بن مخلد) بقوله: "وكان ذا خاصّة من أحمد بن حنبل رضي الله عنه، وجارياً في مضمار أبي عبد الله البخاري وأبي الحسن مسلم بن الحجاج...".^٣

نلاحظ أنّ الإستعارة في (جارياً في مضمار...) قد ساعدت ابن حزم في التوصيف الدقيق لما يريد. وقد كانت استعارته هذه غير مطبوعة بالتكلف أو التصنع، وصوّرت العلم وطلبه بميادين سباق وتنافس.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧٢.

^٢ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٦.

^٣ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٩.

(٧) و حين يذكر ابن حزم مؤلفات (أبي عمر بن عبد البر) يقول أن في واحد من تلك الكتب: "التعريف بهم [يعني الصحابة الكرام] وتلخيص أحوالهم ومنازلهم وعيون أخبارهم..."^١.

(٨) فأما مآثر بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي كتباً جمّة منها كتاب ضخّم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها وأمّهات مدنها"^٢.

(٩) "وأما صقلية فإنّها فتحت صدر أيام الأغالبة سنة ٢١٢"٣.

يمكن اعتبار الإستعارات الثلاث في النماذج السابقة من قبيل الإستعارات الجاهزة أو المستهلكة كثيرة التداول، فقله (عيون أخبارهم) فيه بثٌ للحياة وتجسيدها في الأخبار، إذ جعل المهم من تلك الأخبار بمنزلة العين من الجسد. وفي قوله (أمّهات مدنها) أضفى الحياة كذلك على قرى الأندلس ومُدنها، وجعل المدن المهمة بمنزلة الأم من أبنائها. أمّا قوله (صدر أيام) فإنّه جعل الأيام أجساداً لها صدور. إنّ هذه الإستعارات عمقت المعنى، وشكّلت انزياحاً وخروجاً عن اللغة العادية إلى لغة أكثر كثافة وعمقا، وهذا كله خدم أفكار ابن حزم ومعانيه.

(١٠) "وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلة العلماء، فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز... أعوز وجود ذلك"^٤.

إنّ حديث ابن حزم عن المشرق واعتباره -استعارياً- (ينبوع علم) يجسّد إعجابه الكبير بالمشرق ورغبته الجامحة للسّير نحوه، ومع هذا فإنّ هذا الإعجاب لا يفقده الحماس للأندلس للدفاع عن مكانتها العلمية والحضارية.

(١١) وفي إطار الموازنة بين المشرق والأندلس يقول ابن حزم: "وإذا سمّينا بقي بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن اسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج... وإذا نعتنا عبد الله بن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد لم نجار بهما إلا أبا الحسن ابن المفلس... وإذا أشرنا إلى محمد بن يحيى بن لبانه وعمه محمد بن عمر وفضل بن سلمه لم نناطح بهم إلا محمد بن عبد الله بن الحكم... [ثم يذكر عدداً من الشعراء ويقول:] وكل هؤلاء فحلّ يهاب جانبه، وحصان ممسوح الغرة"^٥.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٨٠.

^٢ - المصدر نفسه ص ١٧٢-٢/١٧٣.

^٣ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٤.

^٤ - المصدر نفسه ص ٢/١٨٧.

^٥ - المصدر نفسه ص ١٨٧-٢/١٨٨.

إنّ نزعة التحدي والتنافس انعكست على استعارات ابن حزم، فما أُلّف رسالة (في فضل الأندلس وذكر رجالها) إلا رفضاً للوصاية والتبعية الفكرية والعلمية للمشرق. وقد عدّد ابن حزم في هذا النص أسماء علماء أندلسيين يوازن بعلمهم ومكانتهم علماء المشرق.

وقد جاء الإستعارات (نُسابق به). (نجار بهما). (ننأطح بهم). (فحل يُهاب). (حصان ممسوح الغرة) من عالم الحيوان ومن أجواء السباق والمنافسة والتصارع. وقد فرضت الإستعارات نفسها على نص ابن حزم، فلم تكن متكلفة متصنعة، إنّما تطلبها المعنى. وأعطت هي الأخرى هذا المعنى حيوية وحركية كبيرتين.

ثمّة نماذج إستعارية أخرى كثيرة لابن حزم، ونحن إذ نكتفي بما سبق، فلا بد أن نقول إنّ الإستعارة عند ابن حزم جاءت - في غالبها الأعم - عفو الخاطر بعيدة عن التكلف، وأدّت دوراً هاماً في رسم الصور وإشاعة جو من الحركة داخل النصوص، وعملت على تقريب المعنى وتوضيح المقصود، واقتربت كثيراً من تفاصيل الحياة اليومية حيث استمدت طاقتها وصورها من تفاصيل تلك الحياة.

٣- المجاز

يُعرّف (الجرجاني) المجاز فيقول: "أمّا المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها، لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز، وإن شئت قلت: كل كلمة جُزّت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له، من غير أن تستأنف فيها وضعاً، لملاحظة بين ما تُجوّز بها إليه، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي (مجاز)"^١.

أمّا ابن الأثير فيقول عنه: "وهذا الفصل مهم كبير من مهمات علم البيان، لا بل هو علم البيان بأجمعه، فإنّ لتصريف العبارات على الأسلوب المجازي فوائد كثيرة..."^٢.

ويُعرّف ابن حزم المجاز بقوله: "والمجاز: في اللغة هو ما سلكت عليه من مكان آخر، كما يقال: هذا المجاز من مكان كذا إلى مكان كذا، ثمّ استعمل فيما نُقل عن موضعه

^١ - الجرجاني: أسرار البلاغة ص ٣٥١-٣٥٢.

^٢ - ابن الأثير: المثل السائر ص ١/٧٤.

في اللغة إلى معنى آخر. وذلك لا يُعلم إلا بدليل من اتفاق أو مشاهدة، وهو في الدين كل ما نقله الله تعالى أو رسوله عليه السلام عن موضعه في اللغة"^١.

وإنما استعملت العربُ المجازَ لميلهم إلى الإتساع في الكلام و"كثرة معاني الألفاظ ليكثر الالتذاذ بها، فإنَّ كل معنى للنفس به لذة ولها إلى فهمه ارتياح وصبوة، وكلما دقَّ مشروبه عندها وراق في الكلام انخراطه، ولدَّ للقلب ارتشافه"^٢.

والمجاز نقيض الحقيقة، لذا فإنَّ له قدرة على التصوير وإثبات المقصود في وجدان المتلقي؛ "وأعجب ما في العبارة المجازية أنَّها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال، حتى أنَّها ليسمح بها البخيل ويشجع بها الجبان"^٣.

وأما أقسام المجاز فقسمان: مجاز عقليّ يكون في إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، ومجاز لغوي ويكون في نقل الألفاظ من حقائقها اللغوية إلى معانٍ أخرى للمناسبة بينهما. والمجاز اللغوي نوعان، الأول: الإستعارة، وفيه تكون العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي المشابه، والآخر: المجاز المرسل، وفيه تكون العلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي علاقة غير المشابهة.^٤

وبناء على ما سبق، فإنَّ علاقات المجاز تكون كالاتي:

أولاً: علاقات المجاز العقلي: وتكون في الإسناد إلى الزمان وإلى المكان وإلى المصدر، وإسناد ما يُبنى للفاعل إلى المفعول، وإسناد ما يبنى للمفعول إلى الفاعل.

ثانياً: علاقات المجاز المرسل: وتكون كالاتي: علاقة السببية، وعلاقة المُسببية، والكلية، والجزئية، واللازمية، والملزومية، والآلية، والتقيد ثم الإطلاق، والعموم والخصوص، واعتبار ما كان، والحالية، والمحلية، والبديلية، والمبدلية، والمجاورة. وغيرها.^٥

أمّا موقف ابن حزم من المجاز، فعلى خلاف المتوقع منه، فلم يكن يرفضه لمجاوفاته للظاهر وسلوكه مسلك الخفاء، فقد قبله ابن حزم مع بعض التحفظات، وانتصر له على اعتبار أنَّه أداة مهمة من أدوات اللغة، وابن حزم نفسه لغوي، يعرف اللغة وأساليبها جيداً. فابن حزم يؤمن بالمجاز استثناء لغوي، يجب أن يقوم دليل من نص آخر أو إجماع أو ضرورة حسَّ بأنَّه تم نقله من الحقيقة إلى المجاز.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٠/١.

^٢ - ابن الجوزية: الفوائد المشوق ص ١٠.

^٣ - ابن الأثير: المثل السائر ص ١/٧٩.

^٤ - انظر: عتيق: علم البيان ص ١٤٣.

^٥ - انظر: الهاشمي: جواهر البلاغة ص ٣١٨-٣٢٥.

وأما الألفاظ الدينية، فموقفه منها فريد، حيث يقول: "إذا جاء في القرآن لفظ عربي منقول عن موضعه في اللغة العربية إلى معنى آخر كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، فإنّ هذه الألفاظ اللغوية نُقلت إلى معانٍ شرعية لم تكن العرب تعرفها قبل ذلك، فهذا ليس مجازاً، بل هي تسمية صحيحة، لأنّ الله تعالى خالق اللغات تُعَبِّدنا بأن نسمي هذه المعاني بهذه الأسماء، أمّا إذا جاء لفظ لغوي منقول عن موضعه في اللغة، ولم يتعبدنا الله تعالى بتسمية ذلك فهذا هو المجاز".^١

إذاً يمكن اعتبار ابن حزم من "مثبتي المجاز، لكنّه يتوسط بين المثبتين والنفاة، فلا يقبل المجاز على إطلاقه...".^٢ أمّا على الصعيد العملي فإنّ ابن حزم كان قريباً من الاعتدال. فلم يبرز عنده المجاز ظاهرة، ولم يجافه أو يتنكر له. ولناخذ بعضاً من نماذج المجاز الواردة في مناظرات ابن حزم وردوده:

(١) "وأما قولهم في الخروج عما هذه صفته إلى قول واحد فمعاذ الله أن ندعو أحداً إلى قول أحد غير قول الله عز وجل وقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم-".^٣

فكلمة (قول) في هذا النص بل وفي مناظرات ابن حزم عموماً، تُعدّ مجازاً عقلياً علاقته الجزئية، وهذه الكلمة ترقى أن تكون مصطلحاً يستخدمه العلماء والفقهاء، وهو يعني المسار العام أو المذهب الذي ينتهجونه. فابن حزم حين استخدم الجزء (القول) وأراد الكل (المذهب) فإنّه ربما يبسط مواطن الخلاف والإفتراق مع المخالفين له، لكنّ الحقيقة أنّ الجميع يدركون خطر هذا (القول) وأنّه يمثل ثورة على الحياة السائدة، وعلى الحياة الدينية على وجه الخصوص، لذلك وقفت الأكثرية متصدية لابن حزم، ودافع هو عن نفسه وعن أقواله حتى آخر لحظة من حياته.

(٢) "... قيل لهم [الخصوم] هل اتفق العلماء أو اختلفوا، فإن قالوا: اتفقوا، كذبوا كذباً لا يخفى على ذي عقل".^٤

هذا المجاز مجاز عقلي أيضاً علاقته الجزئية، حيث ذكر الجزء (عقل) وأراد (الإنسان) بكلّيته. وهذا المجاز يتماشى مع النظرة المصلحية للغة، والتي آمن بها ابن حزم ونقذها في مناظراته ومؤلفاته.

^١ - ابن حزم: النّبذ الكافية ص ٤٠-٤١.

^٢ - أبو صعلبيك: ابن حزم وآراؤه في علوم القرآن ص ٤٤.

^٣ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٧٤.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٧٥.

ولمّا كان العقل مناط التكليف، وهو الأداة الرئيسية في المناظرة، فقد ركّز عليه ابن حزم، حيث رأى أنّ الحقائق إنّ خفيت فلا تخفى إلا على عديمي العقل، وبالتالي فإنّ المناظرة معهم غير مقبولة لافتقادهم أدواتها الرئيسية.

(٣) "ومن ترك شرعاً صحيحاً لدعواه الكاذبة... فقد أتى أكبر الكبائر".^١

جاء استخدام ابن حزم لكلمة (الكاذبة) مجازاً إسنادياً، أسند فيه الفعل إليها، مع أنّها في الحقيقة (مكذوبة)، وهذا الاستخدام لا يعدّ نشازاً أو جفاءً لعرف اللغة، بل إنّهُ يخدم مقصود ابن حزم ويؤكدّه، فما افتراءات الخصوم وادعاءاتهم إلا دعوات (كاذبة) بنفسها وبما يترتب عليها.

(٤) "وهذه كتبنا حاضرة مروية عنا..."^٢.

(٥) "لكنّهم بكم إذا ضمّنا وإياهم [الخصوم] مجلس، فإذا غابوا أتوا بمثل هذه البلاغم العفنة المضحكة"^٣.

في قوله عن كتبه (حاضرة) مجاز إسنادي أسند فيه فعل الحضور إلى الكتب. وفي نسبته فعل الضم إلى (المجلس) مجاز إسنادي علاقته المحلية، وهذان المجازان يؤكدان اعتماد ابن حزم على هاتين الوسيلتين (الكتب ومجلس المناظرة) لنشر علمه ومذهبه والرد على خصومه، فقد نقل الفاعليّة والتأثير كله لهما.

(٦) "وكائن بالموت قد نزل، فتركت من تداريهم مسرورين بذهابك، لا ينفعونك بنافعة"^٤.

بهذا الخطاب ينصح ابن حزم أحدهم، ويأمره بأن لا يخشى خصومه، لأنّهم لن ينفعوه بعد موته. ونرى إسناد ابن حزم فعل (النزول) إلى (الموت) على سبيل المجاز، وما لا شك فيه أنّ ابن حزم ينسب هذا الفعل إلى الله تعالى، ولكنّه تأكد أن هذا المعنى لن يُشوش، فعمد إلى مجاز اللغة متعدياً ظاهرها.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٧٥.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٨٨.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٨٧.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٨٨.

(٧) وحين يذكر ابن حزم اثنين من الذين ذادوا عنه، يدعو لهما: "نور الله وجهيهما..."^١.

(٨) "وما قصر يونس بن عبد الله بن مغيث شيخنا نظر الله وجهه وأكرم منقلبه"^٢.

في النموذج الأول هناك مجاز لغوي علاقته المسببية. فما تنوير الوجوه إلا أثر سببه نعيم الجنة التي يدعو ابن حزم بها لهؤلاء. وفي النموذج الآخر مجاز علاقته البدلية، إذ يدعو ابن حزم أن يكرم الله (المُنْقَلَب) لا (المُنْقَلَب) وهذان المجازان استطاعا أن يحملا الدفق الشعوري والإمتنان الكبير الذي يكنه ابن حزم لكل من دافع وذاد عنه. (٩) "أما إذا علمت أن الأخ من إخواني يكره أن أفصح عنه بمقالة يقولها فهي مدفونة خلال الشغاف"^٣.

(١٠) "ومن العجب أن يكون دعا [الرسول صلى الله عليه وسلم] إلى غير هذا واتفقت الأمم على كتمان هذا وطيه"^٤.

لقد نقل المجاز بعلاقته المسببية عملية الدفن في حقيقتها من (الميت) إلى (السر)، ونقلها -أيضا- عن طريق العلاقة المجازية نفسها في قوله (وطيه) في النموذج الثاني من (الكتب والصحائف) إلى (العلم).

إن هذين المجازين يُظهران جدلية الظاهر والمتواري، فقد وظف ابن حزم الخفاء في النموذج الأول بمعنى إيجابي، وذلك حين يُكتم السر الذي لا يجوز أن يُباح به، أما في النموذج الآخر، فإنه وظفه بمعناه القبيح حين يصبح (السر) كتماناً للعلم والدين. (١١) "... لأستحلّ دم أبيه"^٥.

(١٢) "... أما علمت أن شرب الدواء... "^٦.

(١٣) "وكتبتنا حاضرة ومشهورة..."^٧.

يمكننا اعتبار هذه النماذج عيّنة من المجازات (المستهلكة) لكثرة تداولها حتى غدت بحكم الحقيقة، ولا نجد فيها تكثيفا زائدا للمعنى أو المقصود. ففي النموذج الأول

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٨٩.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١٨٩.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٨٨.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٩٧.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١٩٦.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/١٩٧.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣/١٢٥.

مجاز لغوي علاقته الجزئية، فقد ذكر جزء (الدم) وأراد به الكل (الإنسان). وفي النموذج الثاني مجاز علاقته الكلية، ذكر الكل (الدواء) وأراد الجزء (جرعة دواء)، وفي النموذج الأخير مجاز لغوي عن طريق التعلق الإشتقائي حيث أقام اسم الفاعل (حاضرة) مكان اسم المفعول (محاضرة).

وهكذا وجدنا أنّ ابن حزم لا يرفض المجاز كلياً ولا يقبله على الإطلاق، إنّما يوظفه في مواضع معينة لتكثيف المعنى ولتعميق الشعور به، وأحياناً يستخدمه بما ينسجم مع عرف اللغة، دون أن يكون له تحفظ عليه، لأنّه مؤمن بوظيفة اللغة التواصلية والمصلحية.

٤ - الكناية

حدّ الكناية الجامع: "أنّها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز... واعلم أنّ الكناية مشتقة من الستر. يقال: كُنيت عن الشيء إذا سترته. وأجري هذا الحكم في الألفاظ التي يُستر فيها المجاز بالحقيقة، فتكون دالة على الساتر وعلى المستور"^١.

ويرى (العسكري) أنّ الكناية تجري مجرى التورية، فيقول عنها: "وهو أن يكنى الشيء ويعرّض به ولا يصرّح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء"^٢. والذي يفرق الكناية عن المجاز القرينة، فيكون في المجاز قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي، أمّا في الكناية فإنّ هذه القرينة معدومة.

ويُعرف ابن حزم الكناية بقوله: "لفظ يقام مقام الاسم كالضمائر المعهودة في اللغات، كالتعريض بما يفهم منه المراد وإن لم يصرح بالاسم، ومنه قيل للكناية كناية"^٣. وقد يذهب معنى الكناية إلى كناية الرجل بالأبوة، فنقول: أبو فلان، باسم ابنه. أو يراد بالكناية التعمية والتغطية، أو أن تأتي رغبة عن اللفظ الخسيس كقول الله تعالى: (وَقَالُوا لَجُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) [فصلت: ٢١] فإنّها كناية عن الفروج^٤.

^١ - ابن الأثير: المثل السائر ص ١٨٠-١٨٣/٢.

^٢ - العسكري: الصنائع ص ٢٨٩.

^٣ - ابن حزم: الإحكام ص ١/٦٣.

^٤ - انظر: ابن رشيق: العمدة ص ١/٣٣١.

وتنقسم الكناية بحسب المعنى الذي تشير إليه إلى أقسام ثلاثة: كناية عن صفة، وكناية عن موصوف، وكناية عن نسبة. كما تنقسم الكناية -أيضاً- باعتبار الوسائط (اللوازم) والسياق إلى أقسام أربعة: التعريض والتلويح والرمز والإيحاء^١.

وتعد الكناية من أدق أساليب البلاغة وأكثرها لطافة وبلاغة، لأنّ الانتقال فيها يكون من الملزوم إلى اللازم، فهي كالدعوى ببيّنة، فحين تقول مثلاً: زيد كثير الرماد، كأنك تأتي ببيّنة على ادعائك كرم زيد وهي كثرة الرماد^٢. فغاية الكناية والمعنى الذي جاءت لأجله "هو الإجمال في الخطاب والدفع بالتّي هي أحسن والتجنب للهجر من القول إذ هو أرسخ في الألفة وأمكن"^٣.

ويشكل استخدام ابن حزم للكناية مفارقة كبيرة، فالكناية بما تحمله من خفاء وغموض واعتماد على الرمز تنافي مذهب ابن حزم وفكره الظاهري. لكنّ هذه الإشكالية سرعان ما تزول إذا أدركنا أنّ ابن حزم على صعيد اللغة أقلّ تشدداً وأكثر انفتاحاً على قدرات هذه اللغة وطاقاتها. كما أنّ الكناية توفر لابن حزم مكاناً يأوي إليه بعيداً عن التجلي والظهور اللذين عايشهما في كل تفاصيل مناظراته، وتخفف عنه الضغط النفسي الناتج عن هذه الشفافية الزائدة، وتعطيه فرصة للإلتفاف على اللغة وتسييرها في خدمة مقصوده، كما تعطيه فرصة لإظهار ثقافته اللغوية وقدراته البلاغية.

بالطبع، لا يمكننا تصور ابن حزم منسلخاً كل الإنسلاخ عن طريقة كُتاب عصره، فمهما خرج عن أطهرهم سيعلق به بعض منها. كما لا يمكننا تصور ابن حزم بعيداً عن المشاعر الإنسانية وهواجس الخوف التي تعتري الإنسان، خاصة لرجل مثله كثرَ خصومه وأعداؤه، فتأكّدت الحاجة للكناية ليخفف من وطئة هذه الخصومات، وليستخدمها قناعاً يمكنه من البوح بما يريد. ومن نماذج الكناية في مناظرات ابن حزم:

(١) يقول ابن حزم مخاطباً صديقاً له: "فلن نزل الدنيا بخير ما دام مثلك مرفوع اللواء، معمور الفناء"^٤.

إنّ الكناية هنا (مرفوع اللواء، معمور الفناء) كناية عن صفة، وهي صفة القوة والمجد. وقد استثمر ابن حزم هذه الكناية في تصوير شعوره الفياض ومحبته العميقة التي يحملها

^١ - انظر: الهاشمي: جواهر البلاغة ص ٣٧١-٣٧٣.

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٣٤٧.

^٣ - ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ١١٢٧.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١/١٨٧.

لصاحبه (ابن الحوات) الذي كان رفيقه وصاحبه في سجنه، وقد كان ابن حزم خبيراً بأنّ أكثر الأشياء حاجة إلى مزيد من البلاغة والتصوير هي مشاعر الحب، فأكثر من التصوير والإيحاء في مثل هذه المواطن.

(٢) "فنحن غرباء بين المتعصبين على من سلّم لهم دنياهم ليسلّم له دينه".^١

إنّ هذه الكناية عن صفة (الزهد) والرغبة عن الدنيا هي قضية محورية في تكوين ابن حزم، وقد جاء استخدامه للكناية هنا تعميقاً لهذه الجزئية الهامة، فهو يقسم العلماء إلى قسمين؛ قسم اتبعوا الحكّام ولم يتصدوا للباطل، وقسم أثروا الآخرة على الدنيا، وقد عدّ نفسه من القسم الأخير.

(٣) وفي حديث ابن حزم عن أصل من أهم أصوله، يردُّ به على أحد الخصوم، يقول: "فإنّ نظري ونظرك لا يحكمان على ميراث الأمة عن نبيها -صلى الله عليه وسلم- وإنما على الناس في الشرائع كلها شيء واحد وهو الإلتزام لما جاء به الوحي من عند الله فقط".^٢

الكنايتان هنا عن موصوف، فقلوه (ميراث الأمة) وقوله (الوحي) يقصد به (الشريعة)، وقد أسهم الإخفاء المقصود للمعنى والتلويح به في مزيد من التعظيم لشأن المخفي والمكني عنه، وبالتالي عزز موقف ابن حزم الرافض لمحاولات التجنّي على الشريعة باستخدام أدوات لا تصلح لها كالنظر والقياس.

(٤) "إنّي والله الحمد لست بمبخوس الحظ عن هذا العلم، أعني علم الكلام وطريقتهم في الإستدلال".^٣

لقد شكّلت الكناية هنا مخرجاً ذكياً لابن حزم، فقلوه (لست بمبخوس الحظ) كناية عن القلة، وقد جنّبت مدح نفسه بشكل مباشر، فهو يعلمُ الأثر السلبي الكبير الذي يتركه مدحُ النفس عند المتلقي. وبالمقابل، أوصلت هذه الكناية الرسالة جيداً لمناظريه من أصحاب علم الكلام وأكدت لهم أنّه على دراية كافية بعلمهم هذا.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٨٧/٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ١٩١/٣.

^٣ - المصدر نفسه ص ١٩١/٣.

(٥) "فمن سكنت نفسه إلى قوله عليه السلام، ولم تنازعه إلى دليل، وقبله وقاله، فقد وُقّق للخير والهدى، ومن نازعته نفسه ولم تقتنع إلا ببرهان فهذا الذي يلزمه النظر والإستدلال"^١.

يمكن اعتبار قوله في عبارة (فمن سكنت نفسه) كناية عن صفة الرضا والإطمئنان، والتي جعلها ابن حزم معياراً خفياً يناسب خفاء النفس البشرية، ففي قضية الإستدلال ومتى يجب أن يكون، يُزاد عليه الخصم بأن يجعل الإستدلال واجبا على كل حال، لكن ابن حزم يوظف الكناية توظيفاً علمياً بحثاً في مناظرته، ويضع من خلالها قوانين الإستدلال والبرهان.

(٦) "ودعنا من استبشاع مخالفة المتكلمين الذين لم ينتج الله على أيديهم إلا افتراق الكلمة..."^٢.

نلاحظ هنا أنّ الكناية في (افتراق الكلمة) استطاعت توصيف حالة (التشتت والضياع والضعف) الذي عاشته الدولة الإسلامية عموماً، وفي الأندلس في عصر ابن حزم خصوصاً، وأعطت صورة عن الواقع المرير والفرقة الحاصلة بين أهل الاسلام، وذلك بأقل ما يمكن من لفظ. فما الكناية هنا إلا انقذاح يُشعل خيال السامع ويثيره، وصولاً إلى إقناعه والتأثير به.

(٧) "وأما من كان مجتهداً مأجوراً أجري فليس ممن يُهمل لسانه ويطلق كلامه، بما ضرره عليه عائد في الدنيا والآخرة"^٣.

هذه الكناية (يُهمل لسانه) كناية عن صفة الهذر والثرثرة، وهي تؤكد كياسة ابن حزم وتخفيفه المقصود من هجومه على بعض الأشخاص لما يحضوا به من مكانة عند العوام. فقد خففت الكناية من حدة ألفاظه، وفي الوقت نفسه مكنته من مهاجمة مخالفه بشكل أقل مباشرة، تمهيداً لإسقاط أدلتهم وأقوالهم.

(٨) "وأما قولك (متجاهل) فلعلها صفتك، إذ قامت حجة الله عليك، وأعرضت عنها لعمى قلبك"^٤.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ٣/١٩٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١٩٩.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٢١.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٢٠.

في هذه الكناية -أيضاً- تخفيف مقصود من مستوى العبارات والألفاظ الهجومية، (فعمى القلب) كناية عن صفة الجهل والضلال المطلق، ومع ذلك تبقى بعيدة عن الألفاظ البذيئة، وقد جاء بها ابن حزم مراعاة لمكانة هذا الخصم في نفوس كثير من الناس.

- (٩) "فهنا قف يا أخي وقفة، وتأمله بقلب سليم، فإنه أظهر من كل مظهر"^١.
- (١٠) وكلهم مقلد لأبائه، معرض عن سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وعن أحكامه، وعن أحكام القرآن، لا تجاوز تراقيهم"^٢.
- تضمّن النصّ الأول في قوله (قلب سليم) كناية عن الطهر والنقاء، وبالمقابل تضمّن النصّ الآخر في قوله (لا تجاوز تراقيهم) كناية عن النفاق والدجل.
- ويمكن أن نرى كيف أفاد ابن حزم من الكناية في التصوير الدقيق وفي إضفاء الحركية والحيوية على صوره، وأبتعد بها عن المستوى السطحي أو الأولي للكلام، فكانت هذه الكنايات أكثر عمقاً وأكثر إقناعاً.
- (١١) "وأما إذا علمت أن الأخ من إخواني يكره أن أفصح عنه بمقولة يقولها، فهي مدفونة خلال الشغاف، لا سبيل إلى تحريك لساني بها..."^٣.
- قوله (لا سبيل إلى تحريك لساني بها) كناية عن الخفاء والستر المطلق، وهو المعنى الذي أراد أن يؤكد ابن حزم لصاحبه، فيطمئن ولا يبادره أدنى شك بصدق ابن حزم فيما يقول. وقد أدت الكناية دورها الشعوري جيداً، حيث أنّ من الصعب أن تنقل اللغة بمستواها العادي هذه المعاني، لتعلقها الوثيق بالشعور.

٥- الطباق

ويسمى المطابقة والتكافؤ والتضاد، وقد قسمه أرباب علم البيان إلى لفظي ومعنوي^٤. ويُعرّفه صاحب (الصناعتين) بقوله: "قد أجمع الناس أن المطابقة في الكلام هو الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٩٣/٣.

^٢ - ابن حزم: الرسالة الباهرة ص ٣٠.

^٣ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٨٨/٣.

^٤ - انظر: ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ١٤٥-١٤٦.

من بيوت القصيدة، مثل الجمع بين البياض والسواد، والليل والنهار، والحرّ والبرد"^١.

ويكون الطباق في الجمع بين متطابقين في المعنى، وقد يكون طرفا الطباق اسمين أو فعلين أو حرفين، وقد يختلفان^٢. وللطباق أنواع ثلاثة:

الأول: طباق الإيجاب: وهو ما صرح فيه بالضدين.

الثاني: طباق السلب: وهو ما لم يصرح فيه بالضدين.

الثالث: طباق الإيهام: وهو بأن يوهّم أن لفظاً ضد لفظ وهو ليس بضده^٣.

ولنأتي إلى نماذج من الطباق في مناظرات ابن حزم.

(١) "ولقد أجدتم السؤال وأنا أسأل الله تعالى أن يوفق لإصابة الجواب عنه يا ربّ

العالمين"^٤.

يُظهر الطباق بين كلمتي (السؤال) و(الجواب) ثنائية العالم والمتعلم كطريقة تعليمية تروق لابن حزم، حيث يراها أهمّ أبواب العلم، وما يروق أكثر لابن حزم أن يكون هو المجيب، إذ من خلال إجاباته يستطيع الدعوة إلى منهجه وتبليغ الأمانة التي يرى أنّها منوطة به. وهو يفرح حين يُبادر بالسؤال، إذ يرى أن ليس هناك ما ينقصه من علم ومعرفة، فهو دائم التأكيد على تفوقه وريادته.

(٢) "فصحّ أنّ بأداء الفرائض، واجتناب الكبائر -أعاذنا الله وإياكم منها- تحطّ

السيئات التي هي دون الكبائر"^٥.

كشف الطباق بين المصدرين (أداء) و(اجتناب) نمطيّة التفكير عند ابن حزم. فالتشريع كله يتلخص بهذين الضدين؛ أداء الفرائض واجتناب المعاصي. وينبني على هذا الحكم على الأشياء؛ فالأشياء عند ابن حزم إمّا خطأ واضح بيّن، وإمّا صواب لا خفاء فيه. وقد ساعد الطباق على إظهار هذا النمط من التفكير، وأبرزه في مواقع عديدة.

(٣) "فوالله أيّها الأحبة إنّ أحدنا ليشتدّ روعه ويخفق قلبه من وعيد آدمي ضعيف

مثله، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً"^٦.

^١ - العسكري: الصناعتين ص ٢٤١.

^٢ - انظر: الهاشمي: جواهر البلاغة ص ٣٩١-٣٩٣.

^٣ - انظر: توتاني: التسهيل لعلوم البلاغة ص ١٤٢-١٤٤.

^٤ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٤٣.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١٤٥.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/١٤٧.

يعبر الطباقي بين (نفعاً) و(ضرراً) عن جوهر الدافع الإنساني والمحرك له. فالإنسان متحفز بالنفع، ومثبط بالضرر، وهذه النظرة إلى الأمور عند ابن حزم متأصلة على فهم عميق للحياة، ومعرفة دقيقة بالنفس البشرية، فقد دار ابن حزم في متاهات هذا العالم في كتابيه: (طوق الحمامة) و(مداواة النفوس)، وكشف كثيراً من أسرارها التي كانت عصية على الفهم. وعليه، فقد استطاع ابن حزم -إلى حد كبير- الإفلات من أسر الرغبة والرغبة، فقلما رجا أحداً، وقلما خاف أحداً أو هابه، إنما مضى في سبيله لا يغريه مال أو جاه، ولا يخيفه نقد أو ذم أو عقاب.

(٤) "ثم بعد ذلك يرى مصيره إلى جنة أو نار".^١

(٥) "إن من استوت حسناته و سيئاته فضلت له حسنة واحدة لم يرَ ناراً".^٢
نرى الطباقي قد جاء للإلحاح على المعنى، بل إن ذكر الشق الأول من الطباقي يستدعي الشق الآخر بشكل تلقائي، لا سيما حين تكون الألفاظ دينية أو معروفة مشتهرة عند المتلقي. كل هذا يؤكد أن الطباقي لم يكن غاية عند ابن حزم، ولم يتعمده بقدر ما كان يأتي هذا الطباقي في مكانه المناسب حين يطلبه المعنى.

(٦) "ولسنا نقول هذا على الإقتصار على ذلك دون الإستكثار".^٣

(٧) "إنه تعالى جعل الإبتداء على من أحاطت به خطيئته وغلب شره على خيرهِ".^٤

(٨) "... فتشتت على مراتب الحقائق في دار القرار في الآخرة - وأما الدنيا فمحلٌ مبيت، بؤسها منقض وسرورها منسيّ كأنّ ذلك لم يكن".^٥

(٩) "اعتمدوا على ما نصّ لكم نبيكم عليه السلام ودعوا كلام الفساق الجهال الذين يفسدون في الأرض أكثر مما يصلحون، فيحكون عن رجل أنّه وجد ابنته قد غرست دالية فقلعها".^٦

في النماذج الأربعة السابقة يمكننا بسهولة إدراك الأثر التوضيحي والتأكيدي للطباقي على الجمل، حيث أزلت أيّ احتمالية لبس أو سوء فهم، فالأمر الذي يثبت ابن حزم نراه ينفيه مباشرة عن المقابل، وبالتالي يتأكد المقصود لدى المتلقي يقيناً.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٤٧.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١٤٧.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٤٩.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٥٢.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١٥٢.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/١٥٥.

إنّ الطّباّق بثنائيتيه الصارمة يتوافق مع طبيعة التفكير الحديّة عند ابن حزم، فهما يدوران في فلك واحد، فالأشياء إمّا أن تكون في هذه الجهة أو تلك الجهة، ولا مجال للحلول أو الأمور الوسط.

لقد استغل ابن حزم الطّباّق في مناظرة خصومه وإفحامهم، فهؤلاء الخصوم ليست لهم الرؤية الصارمة التي يرى ابن حزم من خلالها الأشياء، ممّا شكل لهم هذا حرجاً في مناظرة ابن حزم. فكثيراً ما ألزمهم بنفي ما لا يثبتونه، اعتماداً على مفهوم المخالفة، فالأشياء إمّا أن تكون حقاً أو باطلاً، فمن قال أنّها حق فكأنّه قال عن المقابل لها أنّه باطل. وهذا بالطبع لا يعبر عن آراء الخصوم بهذه القطعية. هذه الثنائيات أطّرت تفكير ابن حزم الثاقب، وجعلته محصوراً في قيود قاربت أحياناً من السذاجة والسطحية في التفكير، وجعلته يتناسى أنّ هناك روحاً للأحكام ومقاصد تعلو على كل تلك الحدود المتخيلة.

٦ - المقابلة

يُعرّف صاحب (العمدة) المقابلة بأنّها: "مواجهة اللفظ بما يستحقه في الحكم... وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطى أول الكلام ما يليق به أولاً، وآخره ما يليق به آخراً. ويأتي في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه. وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد، فإذا جاوز الطّباّق ضدين كان مقابله"^١. وتقسم المقابلة إلى أقسام ثلاثة: مقابلة لفظية، ومقابلة معنوية، ومقابلة فاسدة^٢. أمّا المقابلة في المعنى فهي: "مقابلة الفعل بالفعل، مثاله قول الله تعالى: (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) [النمل: ٥٢] فخواء بيوتهم وخرابها بالعذاب مقابلة لظلمهم"^٣.

وقد تأتي المقابلة فاسدة، وفسادها بأن تذكر معنى وتأتي بما لا يوافق ولا يخالف، مثل أن يُقال: فلان شديد البأس، نقي الشعر. ووجه الكلام أن تقول: شديد البأس عظيم النكاية^٤. أمّا من ناحية العدد، فقد تكون المقابلة مقابلة اثنين باثنين، أو ثلاثة بثلاثة، أو

^١ - ابن رشيق: العمدة ص ٢٢/٢.

^٢ - انظر: ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ١٤٧-١٤٨.

^٣ - العسكري: الصناعتين ص ٢٦٦.

^٤ - انظر المصدر نفسه ص ٢٦٧-٢٦٨.

أربعة بأربعة، أو خمسة بخمسة، أو ستة بستة^١. ولناخذ بعضاً من أمثلة المقابلة في مناظرات ابن حزم.

(١) "فلهؤلاء ذخرت الشفاعة، وفي جملتهم من لم تكن له وسيلة ولا عمل خيراً قط، غير اعتقاد الإسلام والنطق به، ولا استكف عن شر قط حاشا للكفر"^٢.
هنا وضع ابن حزم طرفي المقابلة (عمل خيراً) و(استكف عن شر) كنقيضين، ليذهب مع سائله إلى أقصى طرف كل نقيض، وذلك إقناعاً له بموقفه من الشفاعة ومن الأصناف الذين تشملهم شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٢) "والأشد والأسفل لا يقعان إلا بالإضافة إلى ما هو أخف وأعلى"^٣.
تكشف هذه المقابلة المعالجة العقلية للمسائل عند ابن حزم، وقد ساعدته هذه المقابلة حين استثمارها شاهداً ودليلاً على وجهة نظره وهو بصدد اثبات تفاوت العذاب والثواب في الآخرة، فنراه يقف عند آيات وأدلة تثبت من خلال إقرانها بالمقابلة أن هذا التفاوت يقتضيه العدل والعقل.

ونرى هنا إفادة ابن حزم من علم المنطق في المقابلة، فأدلته وإن كانت مبنية على النصوص، إلا أن فهم هذه النصوص وتوجيهها كان بوحى من هذا العلم ومنطقه.
(٣) "فمن عجز عن هذا كله فليقتصر على أداء الفرائض واجتناب الكبائر فإنه فائز"^٤.

(٤) "وأما إن نوى في عمله أن يأمر بالمعروف وينهى عن منكر... فهذه نية خير ومقصد حسن"^٥.

في هذين النموذجين تظهر المقابلة (المنقولة)، فهي ليست مبتدعة مبتكرة حيث وردت في النصوص الدينية كالقرآن الكريم والحديث الشريف. وليس هذا مستغرباً على ابن حزم الذي لم يعن بالتصنع والتزويق، بقدر ما اعتمد على قوالب جاهزة من المقابلة: (أداء الفرائض) مقابل (اجتناب الكبائر) و(يأمر بالمعروف) مقابل (وينهى عن المنكر). وهذه الأنماط تسرع في استحضار الصورة أو المعنى في ذهن المتلقي، مما ينعكس على عملية التواصل، فيجعلها أكثر سهولة ويسر، وأكثر نفعاً وإثماراً.

^١ - انظر: توتائي: التسهيل لعلوم البلاغة ص ١٤٦-١٤٨.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٥٩.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٧٨.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٦١.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١٧٢-١٧١.

إنّ الكلام عن المقابلة مقارب لما تحدثنا به سابقاً عن الطباق، فلم يُكثر ابن حزم
منها، وقد جاءت المقابلة عنده قليلة وعفوية تلقائية، وكان أكثر ورودها لغرض في
المعنى، تعميقاً أو تكثيفاً له، أو كشفاً عن النقيض له.

الفصل الثالث

ظواهر أسلوبية فى مناظرات ابن حزم

- ١- الإستفهام
- ٢- النفي
- ٣- الشرط
- ٤- الإستثناء
- ٥- التوكيد
- ٦- الإلتفات
- ٧- التقديم والتأخير
- ٨- الإيجاز
- ٩- الإطناب
- ١٠- الجملة الاسمية والجملة الفعلية

١ - الإستفهام

الإستفهام هو: "طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل"^١. وأدواته كثيرة ومنها:
"الهمزة، وهل، ومن، وما، ومتى، وأيان، وأنى، وكيف، وكم، وأي"^٢.
وقد تخرج ألفاظ الإستفهام عن معناها الأصلي، فيُستفهم بها عن الشيء مع العلم به
لأغراض أخرى تُفهم من سياق الكلام، ومن أهمّ هذه الأغراض: الأمر، والنهي،
والتسوية، والنفي، والتهويل، والتعجب، والوعيد، والتنبيه على الخطأ، والتكثير.^٣
فحين يؤتى بالإستفهام لغاية التقرير يكون مراد المُستفهم أن يقرّ السامعُ بالإجابة، وعندما
يؤتى به للإنكار فالغاية أن يُثبت السامعُ فساد ذلك الشيء، حتى يرجع إلى نفسه فيخجل
ويرتد عنه. وقد يأتي الإستفهام للمبالغة في الإستحقار أو المبالغة في التعظيم، إذ يقع في
النفس عذوبة المُستفهم عنه.^٤

ولابن حزم آراء في هذا الباب، منها تسويته بين (ما) و (أي)، حيث يقول: "على
أنّ السؤال بـ (ما) والسؤال بـ (أي) قد يستويان في اللغة العربية، وينوب كل واحد من
هذين اللفظين عن صاحبه، ويقعان بمعنى واحد. ومن أحكام اللغة اللطينية عُرف الفرق
بين المعنيين اللذين قصدنا في الإستفهام، فإنّ لفظ الإستفهام فيها عن العام غير لفظ
الإستفهام عن أبعاض ذلك العام، ببيان لا يختل عن سامعه أيضاً"^٥.

ولا بد هنا من وقفة عند ابن حزم (السائل) و ابن حزم (المجيب)، فصاحبنا
(مجيب) من الطراز الأول، إذ إنّ أغلب مناظراته ومؤلفاته هي ردود وإجابات على
أسئلة مباشرة أو غير مباشرة.

فشخصية ابن حزم بعنادها وتمسّكها بمواقفها مؤهلة للجواب أكثر من السؤال، فهو
صعب المراس، لا يُسلم قياده لأيّ كان، وهو شغوف بالعطاء، ويعرف قدر نفسه، فهو
يعلم أنّه يعلم! وقد اقتربت به ثقته من نفسه إلى الإعتقاد أنّه (منقذ أو مخلص) للآخرين،
فقد أخذ على عاتقه مسؤولية توجيههم وهدايتهم، وكان (الجواب) هو وسيلته.

^١ - أبو العدوس: البلاغة العربية ص ٧٥.

^٢ - المصدر نفسه ص ٧٥.

^٣ - انظر: الهاشمي: جواهر البلاغة ص ١٠٢-١٠٥.

^٤ - انظر: ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ١٥٨-١٦٠.

^٥ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٠٩-١١٠/٤.

المفارقة هنا أنّ خصوم ابن حزم أنفسهم يوجهون له أسئلة غير قليلة، بعضها غير بريء، ولكن بعضها صادق، وهذا يؤكد معرفتهم بقدر علم ابن حزم وموسوعيته، وقد كان حفيظاً فَرَحاً بأسئلتهم تلك، ما دام لم يشك في صدق نواياهم.

ومن الطبيعي أن يبدأ ابن حزم - كغيره من الناس - مسيرته في طلب العلم بالسؤال، لكنّ الاختلاف عند ابن حزم أنّه مسكون بهذا السؤال، دائم القلق والبحث، والأهمّ من ذلك أنّه لا يُسلم سريعاً لإجابات الآخرين، حتى إجابات شيوخه ومعلميه، فلم يغلق عقله أو فمه لهم يوماً، وينتظر ما يفيضون به من علم.

كما أنّ منهج الظاهرية نفسه لا يعطي أهمية كبرى (للإجابات) حتى تلك التي تصدر عن العلماء أو أصحاب المذاهب، فقد فتح ابن حزم باب الإجتهد حتى للعامي. وجعله فرضاً وحرّم التقليد، وفي هذا يقول: "لا يخلو السائل عن هذا من أن يكون ممكناً منه طلب العلم وفهمه، أو يكون غيباً لا يقدر على الطلب، فإن كان ممكناً منه طلب العلم، فليطلب وليبحث حتى يقف على البرهان ويعرفه، وإن كان غيباً، فليقل لمن أفتاه بشيء فيما نزل به: أهكذا أمر الله تعالى ورسوله؟"^١. وهكذا وضع ابن حزم ومذهبه الظاهري الأدوات التي تغني عن كثير السؤال، فاستغنى هو نفسه عن كثيره، وجعله قليل الإحتياج إلى غيره من العلماء. ومن المواضع التي حضر فيها الإستفهام في مناظرات ابن حزم:

(١) ينقل ابن حزم قول من يقلدون مالكا: "لو رأيت مالكا لاستعظمت مخالفته"^٢. فيرد عليهم سائلاً: "فياليت شعري لو رأى هذا المخاطب مالكا ماذا كان يرى مما يستعظم مخالفته، أترأه كان يرى في يده عصا يقلبها حية، أو يراه يبصر الأكمه والأبرص أو يحيي الموتى، أو يراه يُطعم النفر الكثير من الطعام اليسير، أو يراه ينبع الماء من بين أصابعه، أو يراه يشق القمر، أو يراه يأتي بكلام معجز"^٣.

شكّلت هذه الأسئلة المتلاحقة والذكية حصاراً للخصم الذي ظنّ أنّه باستحضاره شخصية عظيمة كشخصية الإمام مالك - رحمه الله - سيضع ابن حزم في حرج، فيفحمه ويسكته لما تحظى به هذه الشخصية ومذهبها من قبول وانتشار، غير أنّ ابن حزم لجأ إلى السؤال بوصفه أكثر مشروعية، ومغنيا له عن النقد المباشر.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٩٨-٩٩/٣.

^٢ - ابن حزم: الرسالة الباهرة ص ١٨.

^٣ - المصدر نفسه ص ١٨.

ومع أنّ الخصوم يعدّون هذه الأسئلة غير مشروعة، فإنّ هذه الأسئلة سرعان ما تكتسب شرعيّتها من عقلانيّتها ومنطقيّتها، وتشكّل صدمة ذهنيّة ووجدانيّة للمتلقّي. خاصة حين يربطها مع شخصيّة أعظم وأحداث أهم، أي مع الرسول الأكرم - صلى الله عليه وسلم- ومعجزاته وأحداث السيرة النبويّة عموماً.

(٢) وفي ردّه على ما درج عن مالك أنّه "- رحمه الله - صلى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة"^١. يقول ابن حزم: "أفتري مالكاً في هذه الأربعين سنة لم يكن له إلى أهله حاجة، ألم يمرض؟ ألم تعرض له في الليل بولة ولا قرقرة، ألم تغلبه سنة؟"^٢. (٣) والأمر نفسه، حين يردّ على ما يحكى أنّ (ابن القاسم) صاحب مالك كان يختم القرآن في رمضان مثني مرة^٣. فيردّ ابن حزم متسائلاً: "أتراه لم ينم طول شهر رمضان لا ليلاً ولا نهاراً؟ أما كانت عليه صلاة فرض؟ أما كان عليه إفطار بأكل وشرب؟ أما كان عليه شهود جمعة؟ وإنصات للخطبة..."^٤.

نلاحظ في هذين النموذجين اعتماداً كلياً على السؤال، وقد جاء أكثره باستخدام (الهمزة) لقدرتها على طلب التصور والإحاطة، ولأنّ هذا الأسئلة من النوع البديهي الذكي والعميق والتي لا تحتاج سوى التصديق أو الإقرار، فسيحار الخصم جواباً أمامها، وهي ببدايتها تخلخل أركانه وتجعل من مسلماته قواعد هشّة يسهل انهيارها. (٤) ويردّ على من قال: "لولا مالك والليث لضللنا"^٥، بقوله: "فليت شعري كيف كان المسلمون قبل أن يولد مالك والليث؟ أعلى ظلال كانوا حتى ولدا هذان الرجلان"^٦.

تتنوع أدوات ابن حزم الاستفهامية، بين طلب التصور أو التصديق، أو السؤال عن الكيف وغيره، وتتنوع مقاصده فيها بين تعجّب وإنكار أو استخفاف وتهكم وغيرها، لكنّها - في غالبيتها - تبتعد عن كونها طلباً حقيقياً للعلم بالشيء، إنّما تقترب إلى أن تكون أداة جدلية يناور من خلالها ليوقع خصمه في شرك التناقض والإضطراب، ويعيده إلى الخلف كلما تقدم في مناظرته، طارحاً له أسئلة مفصلية تظهر خبرةً وذكاءً واسعين.

^١ - ابن حزم: الرسالة الباهرة ص ٣١.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣١.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣١.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣٢.

^٥ - المصدر نفسه ص ٢١.

^٦ - المصدر نفسه ص ٢١.

(٥) "فالواجب قبل كل شيء أن يعلموا: ما معنى الجلالة، وما معنى الفضل، وما معنى الورع، وما معنى العلم، وما معنى الفقه..."^١.

هذه الأسئلة تعيد الخصم إلى الوراء كثيراً، وتجبره على التفكير من جديد. وتشكل هذه الأسئلة إجابات على أسئلة محورية دارت حولها المناظرة كلها وهي: "مَنْ أَجَلٌّ وأفضل وأورع وأفقه وأعلم مالك أو أبو حنيفة أو الشافعي أو أحمد أو داوود؟"^٢. فلم يكن ابن حزم تقليدياً في إجابته بل ردّ على السؤال بسؤال مقابل.

وهذا النمط الإستفهامي يكشف عدم ثقة ابن حزم بخصومه، ويبرز فلسفته الشكّية القلقة، وروحه التي لا تُسلم للمسلّمات إلا إذا كانت نصّاً إلهياً.

٢ - النفي

"وهو أعلى ضرب من ضروب البلاغة، كثير الفوائد عذب الموارد، وقد تكلم فيه أرباب علم الكلام، وأرباب علم البيان"^٣. والتقييد بالنفي يكون غرضه سلب النسبة على وجه مخصوص، ممّا تفيده أحرف النفي وهي: لا، وما، ولات، وإن، ولن، ولم، ولمّا^٤.

وهناك ما يسمى (عكس الظاهر) وهو: "نفي الشيء بإثباته، وهو من مستطرفات علم البيان، وذاك أنك تذكر كلاماً يدلّ ظاهره أنّه نفي لصفة الموصوف، وهو نفي لموصوف أصلاً"^٥. ومثاله: "ولا ترى الضبّ بها ينجحر، فإنّ ظاهر المعنى من هذا البيت أنّه كان هناك ضب ولكنّه غير منجحر، وليس كذلك، بل المعنى أنّه لم يكن هناك ضب أصلاً، وهذا النوع من الكلام قليل الاستعمال، وسبب ذلك أنّ الفهم يكاد يأباه، ولا يقبله إلا بقرينة خارجة عن دلالة لفظه على معناه"^٦.

ونفي العام أبلغ من نفي الخاص، كما أنّ إثبات الخاص أبلغ من إثبات العام، ومثال ذلك كلمتي (الإنسانية) و(الحيوانية)، فإنّ إثبات الإنسانية للكائن يوجب إثبات الحيوانية له، ولا يوجب نفي الحيوانية، وكذلك نفي الحيوانية يوجب نفي الإنسانية^٧. وممّا

^١ - ابن حزم: الرسالة الباهرة ص ٣٧-٣٨.

^٢ - المصدر نفسه ص ١٣.

^٣ - ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ١٨٢.

^٤ - انظر: الهاشمي: جواهر البلاغة ص ١٨٢.

^٥ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/٦١.

^٦ - المصدر نفسه ص ٢/٦١.

^٧ - انظر: المصدر نفسه ص ٢/٢٩.

ورد في القرآن الكريم: "(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) [الكهف: ٤٩] فَإِنَّ وجود المؤاخذه على الصغيرة يلزم منه وجود المؤاخذه على الكبيرة، وعلى القياس المشار إليه أولاً فينبغي أن يكون لا يغادر كبيرة ولا صغيرة لأنه إذا لم يغادر صغيرة فمن الأولى ألا يغادر كبيرة، وأما إذا لم يغادر كبيرة فإنه يجوز أن يغادر صغيرة، لأنه إذا لم يعف عن الصغيرة فيقتضي القياس أنه لا يعفو عن الكبيرة، وإذا لم يعف عن الكبيرة فيجوز أن يعفو عن الصغيرة" ^١.

أما ابن حزم فقد توقف عند النفي في كتاب (التقريب لحد المنطق)، وخصص باباً أسماه: (باب ذكر موضع حروف النفي)، وركّز فيه على المواضع الواجب أن يأتي فيها حرف النفي؛ "وأعلم أنه واجب أن تراعي إذا أردت أن تنفي صفة ما أين تضع حرف النفي، فأصل الحكم فيه إذا أردت البيان ورفع الإشكال أن تضع حرف النفي قبل الخبر لا قبل المخبر عنه، فيقول خصمك: زيدٌ حيّ، فتقول: زيدٌ لا حيّ" ^٢.

ويرى - كذلك - أن هناك اصطلاحات خاصة تتبعاً لموضع حرف النفي في الجملة؛ "واعلم أن الأوائل إذا وضعوا حرف النفي قبل الموضوع الذي هو المخبر عنه، كان معه خبراً أو لم يكن معه خبر، فحينئذ يسمونه (غير محصل)، وإذا وضعوه قبل الموضوع، ووضعوه ثانياً أيضاً قبل المحمول الذي هو الخبر سموه (غير محصل ومتغيراً) ولو وضعوه قبل المحمول فقط سمي (متغيراً) فقط" ^٣.

ويقرر ابن حزم الفائدة من هذا التقسيم فيقول: "فافهم اختلاف هذه الرتب فمفعتها في إيراد الحقائق وتثقيف المعاني ورفع الإشكال منفعة عظيمة جداً" ^٤.

ومن آراء ابن حزم في هذا الباب: "وكل قضية لم يكن حرف النفي قبل موضوعها الذي هو المخبر عنه فهي تسمى (بسيطة)، نافية كانت أو موجبة" ^٥. وله رأي في مجيء حرف النفي مع (ممكن): "ألا ترى أنك تقول: ممكن أن يكون زيد أميراً، فإن جعلت حرف النفي قبل ممكن فقلت: لا ممكن أن يكون زيداً أميراً فهذا (نقيض) لأنك نفيت النوع وهو العنصر، يعني أنك نفيت إمكان القضية كلها، فإذا جعلت حرف النفي

^١ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/٣٢.

^٢ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٢١٠.

^٣ - المصدر نفسه ص ٤/٢١٠.

^٤ - المصدر نفسه ص ٤/٢١٢.

^٥ - المصدر نفسه ص ٤/٢١٠.

^٦ - هكذا وردت، وصوابها: زيد.

بعد ممكن وقبل ذكر يكون الذي هو الزمان فقلت ممكن أن لا يكون زيد أميراً فهذا (تغيير) لأنّ الإمكان لم تنفّه بل أثبتته^١.

أمّا عن ورود حرف النفي مع (ذي): "واعلم أنّك إذا أوجبت لمخبر عنه بلفظة (ذي) شيئاً ما، مثل قولك: ذو مال أو ذو صفة كذا، فإنّك إذا أردت نفي ذلك عنه لم يكن لك بُدّ من إبقاء لفظة ذي في نفيك ذلك عن من أوجبت له فتقول: ليس ذا مال"^٢.

هذا على المستوى التنظيري، أمّا على المستوى الواقعي، فإنّ ابن حزم لم يسمح لمناظراته أن تقتصر على الدفاع والنفي، إنّما كان يهاجم خصمه ويرد الإتهام باتهامات عديدة، كما فعل - مثلاً- مع (ابن النغريلة). ومن نماذج النفي في مناظرات ابن حزم وردوده:

(١) "كُتِبَ [الخصم] كتاباً خاطبناً فيه معنفاً على ما لم يفهمه ومعتزضاً لما لا يحسنه"^٣.

يكثّر ابن حزم من استخدام حرفي النفي (لم) و(لا)، فالأول مختص بالفعل المضارع ويقلب معنى المضارع من الحاضر إلى الماضي، لذا فكأنّه ينفي (الفهم) كلياً عن الخصم في النص السابق. أمّا الحرف الآخر فهو متعدد الاستخدام، لذا نرى ابن حزم يكثّر منه. إنّ هذا النفي المطلق قد يُشعر بغرور ابن حزم وفوقيته، خاصة عندما يقطع كل طرق التواصل مع الخصم، كما فعل في هذا النموذج، إلا أنّ الأمر في حقيقته هو شعور بعدم التكافؤ والنّديّة تجاه الخصوم، فهم غير مؤهلين للخوض في هذه المواضيع إذ إنّهم (لا يفهمونها) و(لا يحسنونها)، ومع كل هذا يتجاوز ابن حزم هذه العقبة ويواصل ردّه إدراكاً من أنّه يؤسس لمنهج جديد لأشخاص وأجيال أخرى غير هؤلاء الحاضرين.

(٢) "فليسوا أولى بهذه القصة من أصحاب أبي حنيفة ولا من أصحاب الشافعي ولا من أصحاب أحمد بن حنبل"^٤.

نلاحظ هنا أمرين؛ الأول: تكرار النفي، وهذا التكرار يؤكد النفي ويعمقه، ويجعله أكثر اتساعاً. والأمر الآخر: هو اعتماد ابن حزم على نفي الخاص دون العام، فلم يشمل

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢١١/٤.

^٢ - المصدر نفسه ص ٢١٢/٤.

^٣ - المصدر نفسه ص ٧٣/٣.

^٤ - المصدر نفسه ص ٧٤/٣.

الجميع بنفي واحد، كأن يقول مثلاً: (فليسوا أولى بهذه القصة من أصحاب المذاهب)، وهذا النوع من النفي أبلغ وأكثر إقناعاً وتأثيراً.

(٣) "فإن قالوا: اتفقوا، كذبوا كذباً لا يخفى على ذي عقل، ولا يرضى بالكذب إلا خسيس لا دين له ولا مروءة"^١.

جاء النفي لغرض توصيفي تصوري، وقد استحضر ابن حزم من خلاله عدة صفات بمعناها السلبية، أدته حروف النفي.

(٤) "وأما قولهم: لو هن في طريقه، فلم يصح، فهذا علم ما يدري منهم أحد فيه كلمة فما فوقها، ومن تكلم فيما لا يدري فقد تعرض لسخط الله"^٢.

في هذا النموذج نرى مراوحة ابن حزم بين حروف النفي، جرياً على أسلوبه العام في التغيير والتبديل، إراحة لأذن السامع وتجديداً لنشاطه.

(٥) "هل اتفقوا... حتى لم يختلفوا، أو اختلفوا، فإن هم قالوا: لم يختلفوا في كل مسألة ظهر كذبهم..."^٣.

وظفّ ابن حزم النفي هنا ليضع الخصم في مأزق الإجابة نفياً أو إثباتاً، ومن الظاهر تأثر ابن حزم في تقسيمه هذا بالأثر المنطقي والتقسيمات العقلية الحادة، فوضع خصمه أمام نقيضين: (النفي) أو (الإثبات)، وعلى الحالين سيوضع الخصم في حرج.

(٦) "ونحن الذين قبلنا منهم [الصحابة] حقاً، وإثماً ترك توقيفهم ورفض القبول منهم من أطرح جميع أقوالهم، ولم يلتفت إليها، ولا اشتغل بها إلا قول مالك وحده... لا من لم يخالف إجماعهم ولا حكم في اختلافهم أحداً غير رسول الله صلى الله عليه وسلم"^٤.

نرى هنا كيف جعل ابن حزم من النفي ميزاناً يفارق به بينه وبين خصومه، ومن الواضح أنّه بنفيه هذه الأمور عن خصمه فإنّه يثبتها بالمقابل لنفسه، وهذا الإثبات أبلغ لأنّه جاء بشكل غير مباشر، حيث وضع الشيء مقابل نقيضه.

(٧) "لأنهم ليسوا من أهل الرواية فيعرفوا قويا من ضعيفها، ولا اشتغلوا بها قط ساعة من الدهر، وما يعرفون إلا المدونة على تصفيحهم لها، وما عرفوا قط من

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٧٥.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٧٢.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٧٦.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٧٨.

الصحابه رضي الله عنهم رجلاً، ولا من التابعين عشرة رجال، ولا يفرقون بين تابع وصاحب، سوى من ذكرنا، فلا حياء يمنعهم من أن يتعرضوا للكلام في الرواية، وأكثر المتكلمين في هذا الباب لا يقيمون الهجاء ولا يعرفون ما حديث مسند من مرسل"^١. يتأسس هذا النص -على طوله- على النفي، ونرى ابن حزم يجرّد في هذا النفي خصومه من صفات العلم والخلق والدين، وهذه إحدى أهم طرقه الدفاعية التي يلجأ إليها حين يهاجمه الخصم باتهامات، رغم أنّ هذا الخصم غير بريء منها أصلاً، كما يرى ذلك ابن حزم.

ونلاحظ النزعة أو الأمانة العلمية بارزة في هذا النفي من خلال حصر هذا النفي بحروف الإستثناء، مما يضيق نطاق النفي.

(٨) "فلا يخلو من أحد الوجهين لا ثالث لهما..."^٢.

(٩) "...لأنّه ناقص غير تام"^٣.

(١٠) "...بحضرة الصحابة دون خلاف من أحد منهم... إلى غير أجل"^٤.

(١١) "لأنّهم ليسوا من أهل الرواية..."^٥.

في النماذج الأربعة السابقة نرى تعدد أدوات النفي، كما نرى التأثير بطريقة المتكلمين والفلاسفة في التقسيمات والحصر.

(١٢) "فما خفاء العلم على الحمير حجة على أهل العلم، ولا قلة طلبهم لرواية السنن دليل على عدم الراوي"^٦.

نرى هنا استخدام ابن حزم للحروف المشبهة بليس، فقد عملت (ما) لأنها دخلت على جملة مبتدأ وخبر وغير مستثناة (بالأ). وعملت (لا) - أيضاً - لدخولها على جملة أصلها مبتدأ وخبر وغير مستثناه (بالأ) وكان دخولها على نكرات.

(١٣) "فقد وافقه غير المخالف ممن هو ربما فوق المخالف له أو مثله، والحجة كلها هي القرآن والسنة لا ترك تارك ولا أخذ آخذ"^٧.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٨٢.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٨٠.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٨٠.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٨١.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٨٢.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/٨٣.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣/٨٤.

أسهم ورود النفي بهذه الكيفية بإعطاء خصوصية وسمة خاصة للكلام عند ابن حزم، وطبعه بطابع فريد أراد ابن حزم لتراكيبه.

(١٤) "فما سؤالكم إلا عائد عليكم".^١

شكل ورود حرف النفي مع الإستثناء انزياحاً عن أصل الكلام (سؤالكم عائد عليكم)، وقد أفاد هذا الإنزياح مزيداً من التهكم والسخرية بالخصم وتضييقاً عليه وإحراجاً له.

(١٥) "بل نحن وهم من جملة المسلمين لا نقطع له [يعني مالك رحمه الله] ولا لنا بنجاة، ولا نضمن لنا ولا له الجنة ولا العصمة".^٢

شكل هنا النفي المزدوج عن النفس وعن الخصم محاولة للإلتقاء مع الخصم، بحيث ينطلقان من المستوى نفسه، لتقليل مساحة الخلاف وصولاً إلى حكم جديد. ولا يعني هذا النفي اعتراف ابن حزم الحقيقي بمضمونه، فهو متأكد أنه على الحق والصواب على خلاف حال خصومه.

(١٦) "وهم لا ينكرون علينا إلا هذا بعينه".^٣

(١٧) "فما نعلم أحداً قال بهذا القول قبل القائل به منهم".^٤

هذان النفيان متولدان عن معرفة دقيقة بالخصوم وبآرائهم، ووجهات نظرهم، فابن حزم يحصر نقاط الخلاف - من خلال النفي - في أضيق حدودها، حتى تكون المناظرة أكثر إنتاجية، ولا تحيد عن وجهتها.

(١٨) "إنّ هذا الكلام كذب وإفك، وما قلناه قط، ولا علمنا قط بقوله".^٥

يُظهر هذا النفي المنهج العلمي الدقيق لابن حزم، فلا يورط نفسه بالجدل والدفاع عن قضايا منسوبة إليه، هو في الحقيقة لا يقول بها.

(١٩) "وكذلك تقليدهم مالكا في أن لا قصر في أقلّ من ثمانية وأربعين ميلاً بغير

أن يعضد قوله هذا قرآن، ولا سنة صحيحة ولا سقيمة، ولا إجماع ولا قول صاحب ولا قياس، ولا نظر ولا احتياط، ولا رأي صحيح...".^٦

إنّ الاستقصاء لجميع أوجه التشريع في هذا النص، سواء التي يأخذ بها ابن حزم والتي لا يأخذ بها يجرّد كلام الخصم من أي مشروعية، وبالتالي يُحكم عليه بالعبثية.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٩٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٩٤.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٠٣.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٠٥.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١٠٦.

^٦ - المصدر نفسه ص ١١٤-٣/١١٥.

٣- الشرط

تنقسم أدوات الشرط إلى أدوات جازمة وهي: إن، من، ما، مهما، متى، أين، أينما، أي. وأدوات غير جازمة وهي: إذا، لو، كلما.^١

والأصل مع (إن) أن لا يقطع المتكلم بوقوع الشرط في المستقبل، بخلاف (إذا) فتستعمل في كل ما يقطع المتكلم بوقوعه في المستقبل، لذا لا تستعمل إلا في الماضي. أمّا (لو) فتستعمل للشرط في الماضي، وتعمل (إن) في الشرط المقطوع بثبوته أو نفيه، وتأتي لأغراض كثيرة منها: التجاهل، وتنزيل المخاطب العالم منزلة الجاهل، وتغليب غير المتصف بالشرط على المتصف به.^٢

لقد أتهم ابن حزم بأنه يتبع الفلاسفة والمناطق، ويرد على الشرعي بالمنطق، ومع عدم صحة هذا الإتهام على إطلاقه، فإن تأثير الفلسفة كان واضحاً عند ابن حزم، خاصة في استخدامه للشرط، فبه استطاع الإيقاع بالكثير من الخصوم بعد أن نصب لهم شرك الشرط.

لقد سخر ابن حزم الشرط كلمة سواء بينه وبين منازعه، حيث يتفق معه على أصول ثابتة، ثم ينطلق معه محاوراً ومجادلاً حتى يصل إلى ما بني على هذه الأصول والثوابت. وإذا كان الحديث الأكثر يدور حول حدة ابن حزم وانفعاله، فإن حديثاً آخر لا يقل أهمية يدور حول حنكته ودهائه، فقد جعل من الشرط والنتائج المبنية بعضها على بعض حيلة تناظرية يُغالب بها خصمه. ومن نماذج الشرط في مناظرات ابن حزم:

(١) (فإن قيل...). تُشكل هذه الجملة أو بعض الجملة عنواناً كبيراً قامت عليه كثير من مناظرات ابن حزم، بل ووجدت مناظرات لم تكن لتقوم لولاها، فكثيراً ما يفترض ابن حزم قولاً لأحدهم أو حجة أو دليلاً، وإن لم يكن قالها الخصم أساساً، بل ربما لم تخطر له على بال، وسبب ذلك هو رغبة ابن حزم في الوصول إلى الحقيقة الصافية، وأن يقطع على خصمه كل حجة أو شبهة، كما لا ننسى أنه يؤسس لمنهج ومشروع لا يريد أن يشوبه أو يعيبه شيء.

(٢) "إنا متى أحطنا بعلم الأصل أحطنا بعلم ما بعده".^٣

^١ - انظر: الهاشمي: جواهر البلاغة ص ١٧٧-١٧٩.

^٢ - انظر: المصدر السابق ص ١٧٨-١٨٠.

^٣ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٦٤.

تأتي هذه الجملة الشرطية ضمن عدد كبير من مثيلاتها في مناظرة (الرد على الكندي الفيلسوف)، وتشكل هذه الجمل بحضورها حالة طبيعية جداً في مثل هذه المناظرات مع الفلاسفة، حيث يسيطر على الحوار التقسيمات العقلية والجمل الشرطية.

إننا لا نقول أن ابن حزم يفقد شخصيته وكيانه أمام الخصم وينساق لطريقته وطبيعة تفكيره، لكنّه يظهر مرونة كبيرة في التعاطي مع المناظرين، بهدف التقارب والتواصل وصولاً إلى الحقيقة.

(٣) "وهم عدماء الدين، لأنّ من تجر بشيء باعه، ومن باع شيئاً لم يكن له، ومن تجر بالدين لم يكن له دين"^١.

عادة ما يكون التهمج على الآخرين بدافع الغضب والمقت، لكنّ هجوم ابن حزم هنا متأسس على المنطق والعقلانية، فقد بنى جملة شرطية على أخرى، ودقق في وصف حالهم وخرج في النهاية بهذا الحكم على خصومه بأنهم (عدماء الدين). وهذا الأسلوب أكثر إغاطة للخصوم، وأكثر تأثيراً في المتلقي.

(٤) "ولو كان للبرهان برهان لكان هذا بلا نهاية... فلو قال قائل: ما البرهان أنّ هذه السماء وهذه الأرض، قيل له: لو أجبتك على ذلك، طلبت على البرهان برهاناً"^٢. في هذا النموذج نرى كيف وفرت الجمل الشرطية لابن حزم مساحة هائلة من المناورة وافترض الفرضيات وتفنيدها، وشكلت له مدخلاً لتقصي أكبر قدر من حجج الخصوم وشبهاتهم.

ويرتبط بالجملة الشرطية مصطلحات أخرى كثيراً ما تأتي معها مثل: (سائل) و (قائل) أو (معترض)، حيث يأتي ابن حزم على لسانهم بأدلة محتملة للخصوم. ونحن نعتقد أنّ هذه الأدلة المحتملة إمّا أنّها وردت على ابن حزم في مناظرات أخرى، أو أنّها من اختراع ابن حزم نفسه، حيث قدر أنّها قد تخطر على ذهن خصمه، فجاء بالجملة الشرطية (فإن سأل سائل). وعلى الحالتين فإنّ هذا يؤكد أنّ ابن حزم كان يرى في المناظرة مجالاً رحباً واسعاً لنشر علمه وتأكيد مواقفه.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٦٤.

^٢ - المصدر نفسه ص ٤/٣٦٦.

(٥) "فإن... جعله [يعني الدهر] مُحَدَّثًا زعم أنه لم يكن ممكناً له أن يُفعل قبل، فأوجب عارضاً فنفي الوحدة، وإن جعله قديماً أوجب الدهر قديماً شيء آخر، فنفي الوحدة."^١

لقد أعان الشرط ابن حزم في المحافظة على سير المناظرة، كما ساعده في محاصرة خصمه ووضعِه أمام عدد أقل من الخيارات، والتي تحضّر ابن حزم للإجابة والرد عليها جميعاً.

(٦) "قلت: فاعلم أنه لما نظروا وجدوا بعد المكان والزمان غيرهما، فلما قالوا مثلاً بطل عليهم في فكرهم، ولما قالوا خلافه لم يحسنوا الصفة، لأنهم حسبوا أن العقل لا يجد خالفاً مرتفعاً فوق العقل يدرّكه بالدليل بلا تمثيل، لأنه لا شبه له ولا ند... فلما أرادوا أن يرفعوه فوق العقل لم يهتدوا إلى الدليل عليه فأنكروه، ولما أرادوا أن يتمثلوه وجدوه من المخلوقات بلا نهاية"^٢.

رغم وعورة الموضوع، واندراجه تحت مواضيع غاية الحساسية، وهي إثبات وحدانية الله تعالى، فقد ساعدت الجملة الشرطية ابن حزم على الحفاظ على توازنه وهو يخوض هذه المواضيع، كما جعلت الموضوع أقل صعوبة ووعورة من خلال التقسيم والتنظيم المندرج تحت الجمل الشرطية. كما أعانت السامع على متابعة موضوع المناظرة حتى وإن كان غير متخصص به.

وتكشف لنا هذه الجمل الشرطية مدى إحاطة ابن حزم بأقوال خصمه، وقدرته على ملاحظته ومحاصرته بالنتائج المشروطة مسبقاً.

(٧) "فاشعر إن كنت تشعر"^٣.

(٨) "فإذا هممت بالخير تزعم أن القدر خذلك؟... فتزعم أن القدر ينهضك إلى الخطأ"^٤.

شكلت الجمل الشرطية في المثالين السابقين ما يشبه الهزة لوجدان المتلقي، وإيقاظاً لعقله وتفكيره، فالجمل الشرطية تقدّم المعلومة بشكل مغاير، على خلاف الجمل الخبرية التي

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٤/٣٧٩.

^٢ - المصدر نفسه ص ٤/٣٩٥.

^٣ - المصدر نفسه ص ٤/٣٨٩.

^٤ - المصدر نفسه ص ٤/٤٠٣.

تقدم المعلومة جاهزة، ممّا قد يشكل نفوراً منها عند المتلقي، خصوصاً إذا كان الأمر متعلقاً بالإعتقاد مثل مسألة القضاء والقدر.

وهكذا فقد جاءت الجمل الشرطية متعددة المقاصد والغايات، متعددة الصيغ والبناء، فأكثرها افتتح بالأدوات (إن)، و(لو)، و(إذ). كما استخدم أدوات أخرى مثل (لمّا) و(مَنْ). وقد أسهمت بشكل كبير في الخطاب العقلي والوجداني للخصم، وعززت موقف ابن حزم في المناظرة.

٤- القصر أو الإستثناء

القصر في الإصطلاح هو: "تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص"^١. ويُعرّف ابن حزم الإستثناء بأنّه: "تخصيص بعض الشيء من جملة"^٢.

ويتكون أسلوب القصر من: المقصور، والمقصور عليه، وأداة القصر. وينقسم القصر تبعاً لغرض المتكلم إلى قسمين: الأول: قصر حقيقي: وهو إمّا أن يكون قصر حقيقة بحسب الواقع، بألا يتعداه إلى غيره، مثل: (لا خالق إلا الله)، وإمّا أن يكون بحسب الإدعاء والمبالغة. والقسم الآخر: قصر الإضافة: وهو أن يختص المقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر معين لا يجمع ما عداه، مثل: (ما محمد إلا مسافر).

وينقسم القصر باعتبار طرفيه إلى: قصر الصفة على الموصوف، وقصر الموصوف على الصفة^٣. وللقصر طرق عدة، أهمها: الأول: النفي والإستثناء كقولك (لا فتى إلا علي)، والثاني: القصر بإمّا كقولك (إنّما الشاعر شوقي)، والثالث: القصر بلا، وب، ولكن. والأخير: بتقديم ما حقه التأخير^٤.

أمّا الأغراض التي يُؤتى بالقصر من أجلها فهي تمكين الكلام في الذهن وتقريره أو المبالغة فيه، أو التعريض، كقوله تعالى: (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) [الرعد: ١٩] فالمراد من الآية أنّ المشركين في حكم من لا عقل له^٥.

^١ - أبو العدوس: البلاغة العربية ص ١١٧.

^٢ - ابن حزم: الإحكام ص ٤٤٦/٤.

^٣ - انظر: أبو العدوس: البلاغة العربية ص ١١٧-١١٨.

^٤ - انظر: المصدر نفسه ص ١١٩-١٢٠.

^٥ - المصدر نفسه ص ١٢١.

أما الإستثناء عند ابن حزم فهو بيان وتخصيص في آن معاً، كما أنه يتضمن في ذاته نفيًا أو إثباتًا لما قبل أداة الإستثناء أو بعدها^١. وهو - الإستثناء - أحد آليات تخصيص العموم. ويتجاوز مفهوم الإستثناء في ذهن ابن حزم المفهوم النحوي المحصور في الأدوات النحوية المحدودة، ليقع على أيّ عملية دلالية يتم فيها إخراج الشيء المُستثنى مما أخبر به المخبر عن الجملة المستثنى منها. ويمكن للإستثناء أن يردّ بين نص جاء في موضع ما من الخطاب القرآني أو النبوي ونص آخر ورد في مكان آخر في أيّ الخطابين. وقد أفاد ابن حزم من هذا التصور للإستثناء في حل مشكلة تعارض النصوص. فمكوناته لا تقع على مستوى الجملة كما هو عند النحويين بل على مستوى الخطاب^٢.

ومن مواقف ابن حزم المميّزة تجاه الإستثناء أنه لا يفرّق بين أن يُستثنى القليل من الكثير أو الكثير من القليل. كما أنه لا يُجوز استثناء الجملة كلّها لأنّ ذلك مُحال. أما الإستثناء من المعطوفات فيقول عنه: "إذا وردت أشياء معطوفات بعضها على بعض ثم جاء الإستثناء في آخرها، فإن لم يكن في الكلام نص بيان على أنّ ذلك الإستثناء مردود على بعضها دون بعض، فواجب حمله على أنّه مردود على جميعها"^٣. ويبرهن ابن حزم على نظريته هذه بأنّ ليس بعض هذه المعطوفات أولى بالإستثناء من بعض^٤.

أما فلسفة الإستثناء عند ابن حزم فإننا سنحاول النظر إليها من زاوية غير نحوية، ونرى ارتباطها بشخصية ابن حزم وكيانه، إذ إنّ الغالب أن يكثر الإستثناء والرجوع عن القول والمناورة في ذلك عند أولئك المراوغين الذين يسرون مع الطريق حيث سار، لأنّ نفوسهم مقسمة مشتتة لا كيان لها.

أما ابن حزم فهو قليل التردد عديم التخبّط، متصالح مع روحه وعقله، ثابت المبدأ، لا يضيره اجتماع أهل الأرض قاطبة عليه، فقلما أقلقته نومه أو أزعجت روحه تلك المناظرات والمساجلات العنيفة بينه وبين مخالفيه، وقلما أعاد حساباته حين رأى الخصوم قد كثروا حوله.

^١ - انظر: بوقرة: النظرية اللسانية عند ابن حزم ص ٩١.

^٢ - انظر: الديري: طوق الخطاب ص ٢٠٤-٢٠٥ و ٢٠٧.

^٣ - ابن حزم: الأحكام ص ٤٥٥/٤.

^٤ - المصدر نفسه ص ٤٥٥/٤.

والبرهان على ذلك كله أنك مهما قرأت لابن حزم من مؤلفات متعددة المواضيع والأغراض، ومتنوعة الأساليب والأشكال، فإنك ستري ابن حزم في كل سطر تقرأه، وستسمع صوته في كل كلمة تمر عليك، وسيبقى كيان هذا الرجل حاضراً حين تطالع - مثلاً - كتابه في الحب والعشق، وتنتقل بعد ذلك إلى كتب المناظرات والمناكفات. وهذا كله يؤكد اتساق هذا الرجل وصدقه الكبير مع نفسه ومع الآخرين، فلم يكن كثير الإستثناء والتراجع، لأنه لم يحسن المراوغة أو المداهنة أبداً.

والأمر الآخر الذي يجعل من صاحبنا قليل الإستثناء أنه يرى أن الحق دائماً معه، وأنه دائم الإلتزام له، كما أنه مستعد لقبوله في أي لحظة بدا له هذا الحق، مما جعله يسير في طريقه دون تَلَقُّت أو اضطراب، فما دام يتبع النص ويعطي للنص وحده سلطة الإستثناء أو عدمها، فإنه سيريح نفسه وعقله، باتباعه النص على كل حالاته.

في مقابل كل ما سبق، فقد كان ابن حزم يستثني حين تحتم عليه روحه العلمية المنضبطة والدقيقة ذلك، فلم يكن يطلق كلامه وأحكامه جزافاً، ولم يكن ينقصه معرفة لتغيب عنه تلك الإستثناءات، إنما كان منضبطاً غاية الإنضباط في كل حكم أو قول يقوله، وسنرى هذا في بعض نماذج الإستثناء عند ابن حزم في مناظراته، ومن تلك النماذج:

(١) "وما توفيقنا إلا بالله"¹.

تكثر هذه العبارة عند ابن حزم، خاصة في مناظراته المسماة (رسالتين أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال تعنيف) والتي يبرز فيها الإستثناء كظاهرة إلى حد كبير. يؤكد هذا الإستثناء في النموذج السابق الصلة الروحانية الكبيرة، والإعتماد على الله تعالى عند ابن حزم، وتنفي عنه ما أتهم به من جفاف روحي، وكبر وغرور نفسي.

(٢) "فمعاذ الله أن ندعو أحداً إلى قول أحد غير قول الله"².

يبين هذا القصرُ النهجَ أو القاعدة الكبرى التي سار عليها ابن حزم، وهي الإنصياح للنص الإلهي فقط، وقد أسهم الإستثناء بتركيبه السابق بتأكيد هذه القاعدة وتأصيلها.

(٣) "هذا ما لا يظنه بهم [يعني بالصحابه الكرام] إلا الروافض ملعونون"³.

¹ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٧٣.

² - المصدر نفسه ص ٣/٧٤.

³ - المصدر نفسه ص ٣/٧٧.

في هذا القصر نلحظ الدقة والإهتمام بتفاصيل الموضوع وعدم تغييب أيّ جزئية من جزئياته، كما نلحظ خبرة ابن حزم العلمية والتناظرية من خلال معرفته بأقوال الخصوم على اختلافهم في المسألة الواحدة، فلا يفوت على السامع معلومة قد يعتبرها البعض هامشية غير مهمة.

(٤) "وهم لا ينكرون علينا إلا هذا [يعني إتباع النص] بعينه".^١

هذا النص قريب من سابقه، حيث يظهر خبرة ابن حزم ومعرفته الدقيقة بمواطن الخلاف مع مناظره. وهنا يعمد الى إبراز هذا الموطن من خلال الإستثناء، ليلمح إلى تقارب عام وكبير بينه وبين هؤلاء الخصوم، ويسلط الضوء - في الوقت نفسه - على نقاط الخلاف، علّها تزول.

(٥) "ومن ادعى في حديث أنّه ناسخ أو منسوخ لم يصدق البتة إلا بأن يأتي على ما يدعيه بذلك بنص صريح يخبر أنّه منسوخ".^٢

عادة ما يوحى الإستثناء بشيء من التردد وعدم الثقة، والنص السابق وإن كان يحمل بعضاً من هذا التردد، إلا أنّ ابن حزم استطاع من خلال هذه الاستثناءات وضع ضوابط صارمه، انتقل بها من غلبة الظن وعدم اليقينية إلى اليقين المطلق، فرفض أن يترك أيّ شيء للإحتمال أو الظن، فصنّف الأشياء حقا أو باطلا، وطبق هذا على علوم شتى؛ كعلم الحديث النبوي، حيث رفض تقسيمه إلى أحاديث آحاد وأحاديث متواترة، ورفض الأخذ بالحديث المرسل. أمّا التاريخ فاعتبره يقينياً كله، ما دام الطريق الذي أوصله لنا موثقاً به.

(٦) "فما هذه الرياسة عندنا إلا نهاية الخساسة".^٣

شكّلت هذه العبارة بانزياحها وخروجها عن الشكل الخبري البسيط رفضاً مطلقاً للرئاسة والمناصب الدنيوية، وبما أنّ هذا الميل إلى متاع الدنيا مطوي في القلوب، فإنّ ابن حزم يؤكد مشاعره تلك من خلال انزياحه إلى أسلوب القصر.

(٧) "فهل هذه إلا أحموقة منهم وجهل وغباوة".^٤

(٨) "ولم يبقَ لهم وجه [دليل] إلا مثل هذه السخافة".^٥

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٠٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٩٨.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٠٩.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٠٩.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١١٦.

يمثل النموذجان السابقان شكلاً من أشكال السخرية والتهكم بالخصوم عند ابن حزم، وقد وُظف القصر ليعمق هذا الإستهزاء، والذي كان مبنياً على حقائق، فلم يكن سخرية مجردة. كما يبرز إنصاف ابن حزم لخصومه - رغم سخريته بهم- فهو يناقشهم حتى آخر دليل لديهم، ولا يُخرجه ضيقه بهم عن منهجه العلمي.

٥- التوكيد

التوكيد قسمان: لفظي ومعنوي، فاللفظي يكون بإعادة المؤكد بلفظه أو بمرادفه سواء أكان ظاهراً، أم ضميراً، أم فعلاً، أم حرفاً، أم جملة.

أما التوكيد المعنوي فيكون بإيراد ألفاظ مثل (النفس والعين، وجميع، وعامة، وكلا وكتلتا)، على شرط أن تضاف هذه المؤكدات إلى ضمير يناسب المؤكد.^١

ويُستفاد من التوكيد اللفظي تقرير المؤكد في نفس السامع وتمكينه في قلبه وإزالة أي شبهة عنه. أمّا فائدة التوكيد المعنوي (بالنفس والعين) فهو رفع احتمال الخطأ أو النسيان أو السهو أو المجاز في الكلام، وفائدة التوكيد (بكل وجميع وعامة) هو الإحاطة والشمول بالشيء، أمّا فائدة التوكيد (بكلا وكتلتا) فهو إثبات الحكم للاثنتين المؤكدين معاً.^٢

ويتحدث (ابن الأثير) عن فائدة توكيد الضميرين، فيقول: "وإنما يُوتى بمثل هذه الأقوال في معرض المبالغة، وهو من أسرار علم البيان، ولنقدّم في ذلك قولاً يحصره ويجمع أطرافه، فنقول: إذا كان المعنى المقصود معلوماً ثابتاً في النفوس فأنت بالخيار في توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر، وإذا كان غير معلوم، وهو ما يشك فيه، فالأولى حينئذ أن يؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه لتقرير وتثبيتته".^٣

أمّا (لام التأكيد) فإنّ "علماء البيان وعلماء العربية اتفقوا على أنّ هذه اللام تدخل في الكلام لنوع المبالغة، وذلك أنّهم إذا عبّروا عن أمر يعزّ وجوده أو يعظم أمر إحداثة ووقوعه جيء بها محققة لذلك".^٤

ويقرر ابن حزم "أنّ البيان يكون بالتأكيد - أيضاً- فيفيد ثبوت الحكم العام... وعليه يصح أن يكون البيان توكيداً يزيل كل شبهة احتمال".^٥

^١ - انظر: الغلابي: جامع الدروس العربية ص ٥٤٣-٥٤٤.

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ٥٤٤.

^٣ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/١٧.

^٤ - ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ٢٠٨.

^٥ - بوقرة: النظرية اللسانية عند ابن حزم ص ٩١.

لقد كسب ابن حزم عداً وخصومة الكثيرين، لكنه قلماً خسر ثقة أحد به، فحتى أولئك المخالفين له يعترفون بحماس هذا الرجل وصدقه وإخلاصه لعلمه، وبقدرته على التأثير بمن حوله. وهذا الصدق الذي عُرف به صاحبنا كفيل أن يقوم مقام كل تأكيد، فالخصوم قد اختبروا صدقه، وشاهدوا كيف يتناول المسائل في مؤلفاته ومناظراته ولا يتنكر لأي دليل أو قول لخصمه، كما أكدت المحكات والفتن والمصائب التي لاقاها ابن حزم ثباته وإخلاصه.

كل هذا أعطى ما يمكن أن نسميه (أماناً) للمتلقي، وتطمينا له بأنه أمام رجل صادق سيناقش الأمر بمنتهى الصدق والموضوعية، فعوض هذا (الأمان) عن كل تأكيد. فالمتلقي متأكد أن كل كلمة ينطقها ابن حزم فإنّه يعيها تماماً ويقصدها، ومتيقن أن أيّ مسألة يخوضها فلا بد أنه اطلع على جميع أوجهها واستوعبها جيداً.

وقد كان ابن حزم يستشعر هذه الثقة التي أعطيت له، فأصبح لا يلجأ إلى التوكيد كثيراً، لأنه واثق من نفسه، ولأنّ مؤيديه وخصومه يعطونه الثقة على حد سواء.

ومع كل ما سبق، فقد لجأ ابن حزم -عموماً- إلى نمطين تأكيديين، الأول بمعناه اللغوي والنحوي، والآخر على شكل طريقة تأليفية مميزة. فابن حزم يدرك أنه صاحب مشروع ورسالة يريد أن تصل إلى الجميع، ويدرك أن هذا لا يتم إلا إذا استطاع أن يفهم الآخرين منهجه، وهذا يحتاج إلى (تأكيد) مستمر لرؤيته، وبالتالي فإنّه لم يكن يملّ من التكرار والإعادة والإلحاح على أفكاره، لأنه يعي أنه يؤسس لمنهج ومشروع ضخم، وأنه يحمل أمانة نشر علمه بين الناس على اختلاف عقولهم ومداركهم، وأن يقنعهم به ويؤكد لهم بعد أن يُبسّطه ويسهله.

ومن نماذج التأكيد في مناظرات ابن حزم:

(١) "... وهذا الذي تتفق به الآيات كلها"^١.

(٢) "... لأنّ القرآن والسنن كلها ليس في شيء منها هذا"^٢.

جاء التوكيد (بكلها) من باب الضرورة التأكيدية، إذ إنّ عدم إيرادها سيوحي أنّ ثمة آيات أخرى لا تتفق على تلك المسألة المشار إليها، وأنه من الممكن أن يكون في القرآن والسنة

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢١٩.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٠.

شيء غير الذي نفاه ابن حزم. إنَّ هذا التأكيد يشير إلى إمام ابن حزم وإطلاعه الواسع على المسألة التي يناقشها، وثقته الكبيرة بما يقول.

(٣) "وصحّ بالنصوص كلها أنَّ النفس مخاطبة ملزمة من الله تعالى".^١

هذا النموذج كسابقه، يشير التأكيد فيه إلى الثقة والإطلاع الكبيرين عند ابن حزم، وفي الوقت نفسه يضع ابن حزم أمام تبعات هذا التأكيد، فلا يمكن أن يُقبل منه خطأ أو عدم دقة حين يأتي بالتوكيد، وبالمقابل فإنَّ هذا التوكيد سيمنحه تفوقاً وغلبة على خصومه وأدلتهم.

(٤) "ومن أسخف ممن يحتج بقول الكفار في النبي صلى الله عليه وسلم به جنة، فقولهم كله باطل وزور وإفك".^٢

(٥) "فكيف أن يظنَّ هذا بالنبي أنه تكلم بالكفر وهو لا يدري، إلاَّ إنَّ هذا هو الضلال".^٣

استطاع التأكيد بكل من (كله) وضمير الشأن (هو) أن ينقل مشاعر الغضب الشديد وضيق ابن حزم من هؤلاء المقابليين له، فالنفي في النموذج الأول يبرر انصراف ابن حزم عن الرد على قول خصومه -على غير عادته- لأنه يرى أنَّ أقوالهم (كلها) باطلة، ظاهرة البطلان لا تحتاج إلى بيان ذلك أصلاً. أمَّا في النموذج الثاني فإنَّ التأكيد جاء حاملاً معه دَقَقاً شعورياً غايته التنفير من هذا القول، وتنبيه القائلين به من خطورته وفحشه.

(٦) "سلام عليكم أيُّها الأخوة الفضلاء، والصدقاء الكرام، المغتبط بودِّهم الذي هو أفضل من القرابة الواشجة والمجاورة الدائمة".^٤

قلما يتحدث ابن حزم بأمثال هذا الكلام الودود، وبما أنَّ الموضوع متعلق بالمشاعر الباطنة والأحاسيس المكنونة، فإنَّ ابن حزم لجأ إلى التأكيد بضمير الشأن (هو) ليُشعر المخاطب بصدقه، وأنه مخلص بما يقول.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٢١.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٨.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٢٢٨.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٤٣.

(٧) "إنَّ الله تعالى عندي نعماً أنا أسأله ثم أرغب إليكم... أن تسألوه تعالى لي ولكم إذ يخفف في سجودكم في أواخر ليلكم أن لا يجعل ما وضع عندنا من مادة الفهم في دينه فتنة لنا في دينه"^١.

(٨) "وأنا أسأل الله تعالى أن يوفق لإصابة الجواب"^٢.

يستخدم ابن حزم الضمير المنفصل (أنا) في الموضعين السابقين للتأكيد، وقد أبرز هذا التأكيد نزعة قوية من التواضع لله تعالى والخضوع له عند ابن حزم، وأظهر اعتماده في التوفيق على الله عز وجل.

(٩) "فوالله أيها الأحبة إنَّ أحدنا ليشتد روعة ويخفق قلبه من وعيد آدمي ضعيف مثله"^٣.

إنَّ استخدام أدوات متعددة لتأكيد الأمر نفسه يُظهر تغلغل هذا الأمر في كيان ابن حزم، ورغبته الجامحة في نقله بكل جزئياته وتفاصيله، ورسمها في خيال المتلقي، وتثبيتها بحيث لا تكون قابلة للشك أو الظن.

(١٠) "... فإثما أنكر فعل المعصية نفسها"^٤.

جاء التأكيد هنا لرفع اللبس والتداخل، وهو متصل بمنهج عام لدى ابن حزم يميل فيه إلى الوضوح والبعد عما يمكن أن يوقع في الغموض عند المتلقي.

(١١) "فوالله إنَّ أحدنا ليستشنع موقف جنايته أو موقف قصاصه بين يدي مخلوق ضعيف"^٥.

(١٢) "ولعمري لقد قال الحق"^٦.

يستخدم ابن حزم القسم بأشكال متنوعة لتأكيد ما يريد أن يثبت صحته أو يبرز تفاصيله، وهو انزياح يلفت انتباه السامع ويشعره بأهمية المقسم عليه.

(١٣) "وأنا أسأله... أن يجعل ما أودعنا من ذلك [العلم] عوناً على طاعته في هذه الدار، وزُلْفى لديه تعالى في دار القرار، آمين آمين"^٧.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٤٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/١٤٤.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/١٤٧.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/١٨٠.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/١٥٨.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/١٥٥.

^٧ - المصدر نفسه ص ٣/١٤٣.

(١٤) "... فهو مخلدٌ في نار جهنم... اللهم عياذك، عياذك، عياذك من ذلك"¹.

(١٥) "فالله الله في أنفسكم"².

(١٦) "فالجذّ الجذّ فإنّ لإبليس اللعين هنا مسلكاً خفياً"³.

تأتي هذه التأكيدات اللفظية في إطار تثبيت الأمر وتكثيفه وتسليط الضوء عليه، وهذه التأكيدات -على قلة ورودها عند ابن حزم- تشكل خرقاً مقصوداً من ابن حزم للغة لفتاً لانتباه السامع، كما تعبّر عن مشاعر زائدة وكثيفة، كما هو الحال في النموذج الثاني الذي يُبرز نزعة الخوف من عذاب الله. وكما يضطلع التأكيد في المثاليين الآخرين بمهمة استنهاض الهمة وحثّ الآخرين، فيطلب منهم مضاعفة العمل، لذا رأينا ضاعف البناء اللغوي من خلال التأكيد اللفظي.

٦ - الإلتفات

الإلتفات باب لا يُحسنه إلا فرسان اللغة، لأنّه يحتاج إلى شجاعة كبيرة؛ "لأنّ الشجاعة هي الإقدام، وذلك أنّ الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هذا الإلتفات في الكلام فإنّ العربية تختص به دون غيرها من اللغات"⁴.

والإلتفات هو: "نقل الكلام من حالة إلى حالة أخرى"⁵. أو هو الإنتقال من الغيبة إلى الحضور ومن الحضور إلى الغيبة، أو من الماضي إلى المضارع أو من الماضي إلى المستقبل وبالعكس.⁶

وهناك تعريفات أخرى للإلتفات منها: "إذا انقطع الكلام يعقبه بجملة ملاقية إيّاه في المعنى ليكون تنميماً له على جهة المثل والدعاء أو غيرهما، كقوله تعالى: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) [الإسراء: ٨١]... وذهب قوم إلى أنّ الإلتفات هو أن تذكر معنى فتتوهم أنّ السامع اعترضه شك في ذلك أو في سببه أو علته، فتذكر ما يزيل شكّه"⁷.

¹ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٥٩.

² - المصدر نفسه ص ٣/١٦٧.

³ - المصدر نفسه ص ٣/١٧٠.

⁴ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/٣.

⁵ - ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ٩٨.

⁶ - انظر: المصدر نفسه ص ٩٨.

⁷ - المصدر نفسه ص ٩٩.

وصور الالتفات كثيرة منها: الالتفات من التكلم إلى الخطاب، والالتفات من التكلم إلى الغيبة، والالتفات من الخطاب إلى التكلم، والالتفات من الخطاب إلى الغيبة، والالتفات من الغيبة إلى التكلم، والالتفات من الغيبة إلى الخطاب.^١

أمّا وجه حسن الالتفات فهو إظهار التفنن والتنوع تنشيطاً للسامع واستجلاً لإنصاته، وتوسيع مجاري الكلام وتسهيل الوزن والقافية، وهناك فوائد خاصة حسب موقع الالتفات، ومن تلك الفوائد: تعظيم شأن المتكلم، أو تنميط معنى مقصود المتكلم، أو المبالغة، أو للدلالة على الاختصاص أو قصداً للاهتمام أو التوبيخ.^٢

ومع كل ذلك تبقى فائدة الالتفات "لا تُحدّ بحدّ ولا تُضبط بضابط، ولكن يُشار إلى مواضع منها ليقاس عليها غيرها... وإمّا هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود".^٣

أمّا الالتفات عند ابن حزم فإننا نظنّ أنّه شبه مختفٍ، ولا يشكل ظاهرة أو شبه ظاهرة عنده، ونعتقد أنّ هذا التواري هو بحدّ ذاته ظاهرة.

عموماً، هذا النوع البلاغي قليل الورد عند الكُتاب من غير أهل الصنعة، لعُسر النسبي ولحاجته إلى مزيد من التكلف والتصنع، أمّا ابن حزم ففضلاً عن عدم تصنعه فإنّه يرى أنّ مناظراته هي رسالة لها غاية كبيرة، وبالتالي فإنّ أيّ نوع من الأدبيّة أو البلاغة يجب أن لا يعكّر أو يشوش على المتلقي، لذا قلّ كل الألوان البديعية التي من شأنها أن تساهم في أي نوع من الغموض في النص.

على مستوى آخر، نظنّ أنّ ابن حزم أبعد ما يكون عن التردد والإضطراب، والالتفات حين يتواجد في النص فإنّه يؤثر على مسار الحديث، فابن حزم رجل يعرف نفسه جيداً، ويعرف من حوله، ويعرف خصومه حق المعرفة، ويعي تماماً ما الذي يريد أن يقوله وكيف يقوله لمتلقيه، وعليه ربما رأى في الالتفات التواءً أو خروجاً عن المسار وعن الحرفية الحادة التي يؤمن بها، وأنّه يشوش على المتلقي ويعيق الفهم المطلق الذي يريده ابن حزم له.

وقد استعاض ابن حزم عن هذا اللون، وعن ألوان بلاغية أخرى بسمته الخاصة والفريدة في الكتابة والمناظرة، والتي جعلت من حديثه سهل الولوج إلى الفكر والقلب،

^١ - انظر: أبو العدوس: البلاغة العربية ص ١٠٨.

^٢ - انظر: المصدر نفسه ص ١٠٩-١١٠.

^٣ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/٤.

منسباً يدخل إلى أسمع المتلقي دون عناء، ويأخذ بلبه ويصرفه عما سواه. ومن النماذج النادرة للإلتفات عند ابن حزم :

"فمن استطاع منكم أيها الأخوة في الله عز وجل أن يكون من الطائفة الأولى النقية فليفعل، فحسب الواحد منا أن يكون في جملة من أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم".^١

أظهر هذا الإلتفات والانتقال من الخطاب إلى التكلم حالة الإندغام والاندماج بين ابن حزم ومخاطبيه، وهي حالة لا تكون إلا مع أولئك الذين لم يتخذ ابن حزم موقف العداء المطلق منهم. وقد وظف ابن حزم هذا الإلتفات كسباً لثقة المخاطب، وإشعاراً له بوحدة الهدف والغاية.

٧- التقديم والتأخير

يقول الجرجاني: "ولا تزال ترى شعراً يروك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنتظر فتجد أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان".^٢

والتقديم والتأخير "باب طويل عريض يشتمل على أسرار دقيقة".^٣ وقد اهتم به النحويون والبلاغيون على حد سواء، فالنحاة يدرسونه للكشف عن الرتب المحفوظة والثابتة والرتب المتغيرة في الجملة. والبلاغيون والأسلوبيون يدرسونه للكشف عن القيم الدلالية والنفسية في الأعمال الأدبية، وقد أكثر المبدعون من هذا اللون أو الشكل البلاغي، مما جعله منحىً أسلوبياً مميزاً، لما يشكّله من خرق وانزياح عن الترتيب المألوف لتركيب الجملة العربية.^٤

وتقديم الشيء يكون على وجهين: "تقديم يُقال أنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقرّته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ... وتقديم لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم، وتجعل له باباً غير بابه وإعراباً غير إعرابه".^٥

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/١٦٥.

^٢ - الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ١٠٦.

^٣ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/٣٥.

^٤ - أنظر: أبو العدوس: الأسلوبية ص ١٨٦.

^٥ - الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ١٠٦.

والتقديم والتأخير قد يؤثر على المعنى فيغيره، لاختصاصه بالمعاني، فقد يكون التقديم أبلغ في حالات؛ كتقديم المفعول على الفعل، وتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم الظرف أو الحال أو الإستثناء على العامل.^١

فالمسند الذي حقه التأخير يقدم لغايات منها؛ تخصيصه بالمسند إليه، والتنبيه على الخبرية، والتشويق للمتأخر، وللتفاؤل، وإفادة قصر المسند إليه على المسند. أما المسند إليه فيقدم لأن الأصل فيه التقديم حين لا يوجد مقتضى للعدول عن ذلك، ويقدم أيضاً لتمكينه في ذهن السامع وتشويقه إليه، أو يقصد من تقديمه تعجيل المسرّة، أو إفادة العموم، أو إيهام التلذذ بذكره.^٢

ومن ظواهر التقديم والتأخير الأخرى -غير تقديم المسند أو تقديم المسند إليه- تقديم المفعول به على الفعل والفاعل. وتقديم متعلقات الفعل الأخرى، كتقديم الجار والمجرور، والظرف، والحال على صاحبها.^٣ وللتقديم أثر في المعاني وفي توجيه النص؛ "وأعلم أنّا لم نجدهم اعتمدوا فيه [التقديم والتأخير] شيئاً يجري مجرى الأصل، غير العناية والإهتمام".^٤

أما التقديم والتأخير عند ابن حزم فإنه يأتي - في غالبه- مشكلاً انتهاكاً مقصوداً لرتب أجزاء الجمل، وخروجاً مدروساً عن خط سيرها، إذ إنّ الأصل عند ابن حزم أن يلتزم بناء الجملة الطبيعي، ليس لأنه يعطي اللغة قداسة، إنّما احتراماً للعملية التواصلية والوظيفية للغة، وإيماناً منه أنّ كثرة الانحرافات عن أصل التواصل اللغوي ستعيق عملية التواصل والإدراك الكامل لمرامي الخطاب، وبالتالي ستكون هناك ضبابية في الفهم لدى المتلقي، يأبى ابن حزم القبول بها لأنّ ظاهره يتجافىها أصلاً.

فإذا استحضرنّا عملية بناء النص الخطابي عند ابن حزم، فإننا نعتقد أنّه لم يُعان صعوبة كبيرة في توليد نصوصه، فهو رجلٌ منظم ومرتب في فكره وقوله، يرتسم الخطاب في مخيلته بكامل تفاصيله وأجزائه، ويعبر عن هذه المعاني المرتسمة بلغة ملك زمامها، واستطاع تطويعها لتخدم مبادئها معانيه.

^١ - انظر: ابن الأثير: المثل السائر ص ٣٥-٤٣/٢.

^٢ - انظر: أبو العدوس: البلاغة العربية ص ١٠١-١٠٦.

^٣ - انظر: أبو العدوس: الأسلوبية ص ١٨٦.

^٤ - الجرجاني: دلائل الإعجاز ص ١٠٧.

وبالتالي، فهو يسير في خط واحد من الخطاب، وإن أراد الإنحراف عنه فالأمر حتماً سيكون مقصوداً. هنا، سنحاول كشف بعض من هذه الغايات عن طريق ملاحظة هذه الخروجات في بعض النماذج من مناظرات ابن حزم، وملاحظة أثرها على النص.

(١) "... ورغبتك في أن أبين لك وجه الحق... وأن يكون عليه من البرهان ما يصححه لئلا يصير دعوى كسائر الدعاوى".^١

تقدم هنا الجار والمجرور (من البرهان)، ولا نستغرب على ابن حزم أن يقدم (البرهان) على مستوى الخطاب وهو الذي قدمه على كافة المستويات والأصعدة، فهو محور هام وركن أساسي في تفكير ابن حزم، بل إنه يرى أن كل شيء حوله قائم على الاستدلال والبرهان.

(٢) "ثم البرهان قائم على بطلان هذه الدعوى [أي دعوى أن النجاة تكون بعلم الفلاسفة]، لأنّ الفلاسفة الذين إليهم يستند هذا المدعي يختلفون في أديانهم كاختلاف غيرهم سواء بسواء، فواجب طلب الحقيقة في ذلك عند من قام البرهان على أنه إنما يخبر عن خالق العالم".^٢

نرى هنا أن ابن حزم قدّم شبه الجملة (إليهم) على الفعل المضارع (يستند)، وفي هذا تسليط للضوء على ارتباط حجة الخصم بحجة الفلاسفة، وتأكيد للتقارب بين الطرفين عن طريق التقارب اللفظي؛ فقرّب الضمير العائد على الخصوم في (إليهم) إلى كلمة (الفلاسفة) ليظهر هذا الاقتراب والتلاقي.

كما غير ابن حزم ترتيب الجملة (فواجب طلب الحقيقة) حين قدّم الحكم القاضي بالوجوب لطلب الحقيقة (فواجب)، وهذا يؤكد أهمية هذا الطلب، ويظهر أثر العلم الأصولي والفقه في تركيب الكلام عند ابن حزم، حيث هو معتاد على إطلاق مثل هذه الأحكام في كتاباته الفقهية والأصولية.

(٣) "وكذلك جميع العلوم لا يمكن البتة أن يحسنها أحدٌ إلا حتى يتعلمها".^٣

لقد مهد تقديم (البتة) في الجملة السابقة الطريق أمام إدراج تكرار لها في نهاية الجملة بكلمة (أبداً). وقد قطع التقديم الأمر وأعطاه صفة يقينية، وهذا يتفق مع منهج ابن حزم الرافض لغلبة الظن.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣١/٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣٥/٣.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣٦/٣.

(٤) "أما علمت أنّ حدّاق أصحاب مالك: إسماعيل القاضي وكل من بعده هذا قولهم"^١.

في هذا الكلام الموجّه إلى أحد المالكيين نرى تقديم ابن حزم اسم تلميذ مالك (إسماعيل القاضي) على ما حقه التقدّم (هذا قولهم)، وهذا يكشف لنا عن ذكاء ابن حزم في محاوره خصمه، وخبرته النفسية بمدخل النفوس وأسرارها، وقدرته على استجلاب انتباهه والتأثير عليه، إذ أنّ ذكر مالك وأصحابه هو مدخل محبّب لهذه المحاور، الذي يرى جواز بل وجوب تقليدهم.

(٥) "فإن كنت ترغب بنفسك عن الصلاة خلف من ذكرنا فنفسك سفهت وإياها ظلمت"^٢.

يُعبّر هذا التقديم والتأخير عن الموقف النفسي العام لابن حزم تجاه مناظره، فهذا المناظر يسأل عن أحكام الإمامة، وقد استشف منه ابن حزم صدقاً في طلبه للجواب، لكنه بقي على حذر منه، لأنّه متمذهب للإمام مالك، وعليه، فقد توسطت مشاعر ابن حزم تجاهه وتردد أسلوبه بين التعنيف والتلطف.

وهنا في هذا النموذج كان التعنيف بعبارتي (سفهت وظلمت)، ولكن كان لتقديم (نفسك) و (إياها) دوراً في تخفيف هذا التعنيف، وإيحاء بأهمية هذه النفس -أي نفس السائل- عند ابن حزم وإظهار لرغبة الخير له.

(٦) "وأما قولك في السّلم: الدرهم بدرهمين، فهذا وإن كان عندي حراماً، فقد قال به كل من لا يعدل كل من بعده يوماً من أيامه، وهو ابن عباس، ثم فقهاء أهل مكة"^٣. قدّم ابن حزم شبه الجملة الظرفية (عندي) على الحكم (حراماً)، وهذا التأخير للحكم جعله قابلاً للنقاش، وأظهر ابن حزم متسع الصدر لآراء وأحكام أخرى غير التي يقول بها.

بالطبع، يعد هذا الإنفتاح على أقوال الآخرين من النادر القليل عند ابن حزم، فهو لا يعتدّ بآراء غيره وأحكامهم، لكنّه هنا أظهر احتراماً لها من خلال التقديم والتأخير الذي أجراه في نصه.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٠٩.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٢١٠.

^٣ - المصدر نفسه ص ٢١٢-٣/٢١٣.

٨- الإيجاز

الإيجاز هو: "دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه"^١. وهذا النوع من الكلام "شريف لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة من سبق إلى غايتها وما صُلّي، وَضَرَبَ في أعلى درجاتها بالقدح المعلى، وذلك لعلو مكانه وتعذر إمكانه"^٢. والإيجاز على ضربين: ضرب مطابق لفظه لمعناه، لا يزيد عليه ولا ينقص، ويسمى المساواة. والضرب الآخر: يسمونه الإكتفاء وهو داخل في باب المجاز، إذ يُحذف بعض الكلام لدلالة الباقي على الذاهب، ولأنّ نفس السامع تتسع في الظن والحساب.^٣

والإيجاز بالحذف يكون بحذف مفردة أو جملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف، وهذا الحذف يُنتبه إليه من غير كبير كلفة في استخراجِه، لمكان المحذوف منه.^٤ وعلى التفصيل؛ يكون الحذف في: الاسم المضاف، أو الاسم المضاف إليه، أو الاسم الموصوف، أو الاسم الصفة، أو الشرط، أو جواب الشرط، أو المسند، أو المسند إليه، وغيرها.^٥

ويشترط في الحذف أن يكون في اللفظ دلالة على المحذوف، وإلا فيكون اللفظ مخلا بالفهم، وقد تحصل هذه الدلالة من إعراب اللفظ.^٦ وفائدة الحذف هو الإيجاز والإختصار وتحصيل المعنى الكثير في لفظ قليل، إضافة إلى اللذة التي تكون في استنباطه واستخراجه. غير أنّ هناك من ذهب إلى أنّ هذا الإيجاز لا يحسن في جميع الأحوال، فالذي يَحسُن منه يكون في الأشعار والمكاتبات، والذي لا يحسن يكون في الخطب وكتب الفتوح التي تقرأ في ملأ من عوام الناس.^٧

ولقد لاحظ ابن الأثير أنّ البعض يشترط للإيجاز فهم العامة، وهو يرفض ذلك لأنّ فهم العامة إذا كان هو المقياس فيجب اختيار المبتذل من الكلام لليلة نفسها. ثم يحدد المسلك الأصح في الإيجاز وهو: "أن يسلك المذهب القويم في تركيب الألفاظ على المعاني، بحيث لا تزيد هذه على هذه، مع الإيضاح والإبانة، وليس على مُستعمل

^١ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/٧٠.

^٢ - المصدر نفسه ص ٢/٦٨.

^٣ - انظر: ابن رشيقي: العمدة ص ٢٦١-٢٦٣/١.

^٤ - انظر: ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/٧٤.

^٥ - انظر: الهاشمي: جواهر البلاغة ص ٢٤٤-٢٤٥.

^٦ - انظر: ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ٧١-٧٢.

^٧ - انظر: ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/٦٩.

ذلك أن يفهم العامة كلامه، فإنّ نور الشمس إذا لم يره الأعمى لا يكون ذلك نقصاً في استنارته"^١

وهناك ما يُسمى بالحذف القبيح، وهو الحذف المخلّ بالمعنى، ويُطلق على ما يُحذف من أصل اللفظ وهو إسقاط حروفه، ولا يجوز استعماله في القرآن العظيم، ولا في التأليف، لكنّه يجوز في الشعر لأنّ العرب قد أوردته أشعارها واستعملته في كلامها فحذفت بعض الألفاظ استخفافاً، حذفاً لا يخلّ بالباقي^٢.

وهنا سننظر في مناظرات ابن حزم ونرى الإيجاز فيها، وبالطبع سنولي الجانب العميق من الإيجاز أهمية زائدة، وهذا الجانب الذي نقصده هو إيجاز القصر لا إيجاز الحذف، والذي سمّاه البلاغيون إيجاز البلاغة^٣.

ولابدّ من التأكيد أنّ ابن حزم كان فارس الإطناب لا الإيجاز، فكان الغالب على أسلوبه الإطناب، وسنجلي الأمر أكثر عندما نتناول - تالياً - الإطناب عنده، ومع ذلك فإنّ ابن حزم إن أراد الإيجاز لا يقلّ مهارةً وذكاءً عن مهارته في الإطناب والإسترسال، فقد رُزقَ ذهنًا حاداً، وحافظة قوية مكنته من تصوّر ما يريد أن يكتبه أو يقوله تصوراً شاملاً، فإذا قاله تناوله مركزاً، لا يتخبّط فيه أو يغادر شيئاً منه، وكل ذلك بأقصر لفظ وأقلّ كلام.

أمّا الأسباب التي كانت تلجئه إلى الإيجاز فأهمها نوعيّة المخاطب، فإن كان هذا المخاطب أو المناظر على درجة من العلم والفهم اكتفى ابن حزم بالقليل، واستغنى بالإشارات والتلميحات عن التفصيل والإطالة.

ثمّ إن كانت المناظرات شفوية عارضة سريعة، فإنّ ابن حزم سيعتمد الإيجاز للردّ على قول المناظر، لأنّه يعلم أنّ سرعة الردّ وقصره وتركيزه هي عوامل نجاح المناظر في مثل هذه المناظرات، والتي تكون عادة أمام الناس. وقد أكسبت الدربة وكثرة الممارسة الجدلية ابن حزم خبرةً في الرد السريع الموجز الذي (يضغط) فيه الكلام إلى أقصى درجات الإيجاز.

كما أنّ الغاية من المناظرة أو المؤلف تحثّ الإيجاز أحياناً، فقد يقصد ابن حزم إلى اختصار كتبه الكبيرة وإيجازها تسهيلاً لفهمها وحفظها. كما أنّه إن كان يريد من

^١ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/٧٠.

^٢ - انظر: ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ٨٠.

^٣ - انظر: ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/٧٤.

الخطاب أن يصل إلى شخص أو جهة معينة، مثل الرسائل الشخصية أو الردود على معينين، فإنّ الإيجاز سيكون سيد الموقف، لأنّ هؤلاء -على الغالب- لا يحتاجون إلى بسّط القول وتفصيله. وربما اقتضت طبيعة الموضوع الدائر الإيجاز لأنّ هذا الموضوع لا يحتمل الطول والإطناب.

على كل حال فإنّ الإيجاز لم يُفقد خطاب ابن حزم سلاسته وسهولته، ولم ينحرف به إلى التعقيد والغموض، كما هو حال الإيجاز المخلّ، بل إنّ ابن حزم نafs كُتاب عصره الذين كانوا يعتمدون هذا الأسلوب إظهاراً لمهارتهم، وأكّد قدرته على الإيجاز مع المحافظة على وضوح المعاني، ونصاعة الأسلوب وانسيابية الكلام. ولنرى بعضاً من هذه النماذج من الإيجاز في نصوص مناظرات ابن حزم.

(١) "فاعلم يا أخي - وفقنا الله وإياك- أنّ خوفك المشغبين لا يكفّ عنك غرب أذاهم لو قدروا لك على مضرة، وإن كشفك الحق وصدعك به لا يقدم إليك مؤخراً عنك".^١

يتجه النص السابق عموماً ناحية العلة الرئيسية لصمّت مناظر ابن حزم عن قول الحق، وهي علة خمنها ابن حزم فوجّه كلامه ناحيتها. ففي نهاية المقطع حين قال له (وإنّ كشفك الحق وصدعك به لا يقدم إليك مؤخراً عنك) قد استعمل إيجاز القصر، حيث ترك المجال لخيال المخاطب لتصور ما يمكن أن يصيبه من مكائد ومصائب من هؤلاء الخصوم، فلم يعد له هذه المكائد لأنّ الإيجاز هنا أبلغ وأكثر إثارة وتحريضاً للمخاطب.

وقبل الانتقال إلى النموذج الثاني، فإننا نرى أنّ الإيجاز لم يأت في النموذج السابق أو التالي وحسب، بل لقد كان في عموم المناظرة المتضمنة لهذه النصوص، فالمناظرة المسماة (رسالة البيان عن حقيقة الإيمان) تقوم في كليتها على الإيجاز. والمناظر فيها هو (ابن الحوات) وهو أحد المعجبين بابن حزم، وهو على درجة عالية من العلم، وقد فاق في منعه التقليد وتحريمه موقف ابن حزم نفسه، إذ يرى أنّه لا يجوز تقليد أحد حتى الرسول صلى الله عليه وسلم، فيرد عليه ابن حزم قوله هذا، وقد أعانه على الإيجاز أنّ هذا المخاطب تكفيه الإشارات والإلماحات لا التفصيل، لأنّه ذو علم وفهم.

(٢) "يا أخي اجتهد لربك، وأدعُ إليه وخفه في الناس".^٢

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٨٨/٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ١٨٨/٣.

نرى الإيجاز هنا في جمع ابن حزم أصولاً كبرى للعبادة، وفي رسمه لمسلك التعامل مع الناس، وهو يقدمه كدواء ناجع لمقابله الذي يحتاج إلى التذكير بالأصول لا بتفاصيلها.

(٣) "وأما قولك: أما تقصد الآن إلى أن لا يؤثر عنك قول إلا حتى تستخير الله تعالى فيه كثيراً، وتصحح نيتك في ذلك، فحسنٌ جداً وحال لا ينبغي لأحد تعديها"^١.

هنا نرى الإيجاز في الإجابة، فقد اكتفى ابن حزم بالحكم العام (فحسن)، وهو يشير إلى تأييده لقول مناظره، كسباً لوده وتمهيداً لإقناعه والتأثير عليه في نهاية المناظرة.

(٤) "برّد الله مضجعه، ولقاه الروح والريحان"^٢.

(٥) "فلقد هيّأه [الله تعالى] ويسّره لمنافع عباده، وأجرى الصالحات على يده"^٣.

النموذج الأول هو دعاء (لأبي جعفر أحمد بن عباس) الذي دافع عن ابن حزم، والنموذج الآخر هو مدح (لأحمد بن رشيق الكاتب) والذي دافع عن ابن حزم كذلك.

نلاحظ الإيجاز في النموذج الأول، إذ جاء على شكل جملة معترضة بين تعداده لأسماء الذين نصره، وقد شمل الدعاء بالخير (لأبي جعفر) في القبر وفي الحياة الآخرة، مع الإبقاء على النص الأصلي متصلاً دون إنقطاع. وفي النموذج الآخر نلاحظ اشتغال المدح على صفات متعددة في الممدوح، فوصفه بالخيرية الدنيوية (يسره لمنافع الناس) ووصفه بالخيرية الدينية (أجرى الصالحات على يده).

(٦) "فجوابي أنه عليه السلام لم يقله، ولو قاله لوجب، ولكنه لم يقله"^٤.

يُظهر هذا الإيجاز سرعة الإجابة عند ابن حزم وثقته في هذا الجواب، وقدرته السريعة على إسكات الخصم وإفحامه من خلال استحضر الأصول والقواعد دون الدخول في تفاصيلها.

(٧) "حتى جاء المعتزلة والأشعرية، وهما الطائفتان المعروف قدرهما عند المسلمين..."^٥.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٨٨/٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ١٨٩/٣.

^٣ - المصدر نفسه ص ١٩٠/٣.

^٤ - المصدر نفسه ص ١٩٢/٣.

^٥ - المصدر نفسه ص ١٩٣/٣.

يأتي الإيجاز هنا على شكل إشارة تبرر الموقف دون أن تفصّله، فابن حزم لا يخوض هنا في تفاصيل (المعتزلة والأشعرية) ولكنّه يريد أن يبيّن حكماً على هذا الموقف، فعمد إلى الإيجاز بقوله (المعروف قدرهما عند المسلمين).

(٨) "ودع عنك بالله حماقات أهل السفسطة المسخرين لحماقات كتب ابن فورك والباقلاني وما هنالك".^١

هنا الإيجاز مشابه للنموذج السابق فقد اختزلت عبارة (وما هنالك) تفاصيل كثيرة ليس محلها النص، لكنّها ضرورية كتأسيس له.

(٩) "أريد أن تنظر في كلامي بعين سليمة من الإعراض ومن الاستحسان معاً".^٢

(١٠) "فمن يُسرّ للحق فهو محقّ كيفما اعتقده، ومن يُسرّ للباطل فهو مبطل كيفما اعتقده".^٣

نلاحظ في النموذجين السابقين تكثيفاً للمعاني مع قلة الألفاظ، ففي النموذج الأول يرسم الإيجاز المنهج العلمي الموضوعي الذي أراده ابن حزم من مناظره، وفي النموذج الثاني أسهم الإيجاز باقتراب النص من شكل المثل أو الحكمة.

(١١) "صحّ أنّ الله تعالى خلق كل شيء في العالم من حامل ومحمول ولا ثالث لهما في العالم".^٤

أمّا هنا فقد اعتمد ابن حزم على التقسيم المنطقي أداة تساعد على الإيجاز واختصار القول.

٩- الإطناب

الإطناب: هو "زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة على متعارف أو ساط البلاء لفائدة تقويته وتوكيده، نحو (رَبِّ إِيَّيْ وَهَنْ الْعَظْمُ مِيّ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً) [مريم: ٤] أي كبرت".^٥

والإطناب ليس هو التطويل، فالإطناب "يأتي في الكلام مؤكداً كالذي يأتي بزيادة التصوير للمعنى المقصود إمّا حقيقة وإمّا مجازاً، والتطويل ليس كذلك، فإنّه التعبير عن

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ١٩٣/٣.

^٢ - المصدر نفسه ص ١٩٨/٣.

^٣ - المصدر نفسه ص ٢٠٢/٣.

^٤ - المصدر نفسه ص ٢٠١/٣.

^٥ - الهاشمي: جواهر البلاغة ص ٢٤٦.

المعنى بلفظ زائد عليه يُفهم ذلك المعنى بدونه، فإذا حذفت تلك الزيادة بقي المعنى المُعبّر عنه على حاله لم يتغير منه شيء، وهذا بخلاف الإطناب، فإنّه إذا حذفت منه تلك الزيادة المؤكدة للمعنى تغيّر ذلك المعنى، وزال ذلك التأكيد عنه، وذهبت فائدة التصوير والتخييل"^١.

والإطناب أنواع كثيرة جداً، نذكر بعضها مجملاً؛ فمنها ذكر الخاص بعد العام أو العام بعد الخاص، ومنها الإيضاح بعد الإبهام، ومنها التكرير، والتذييل وهو تعقيب جملة لجملة أخرى تشتمل على معناها تأكيداً لمنطوق الأولى ومفهومها، ومن أنواع الإطناب الإحتراس ويُقال له التكميل وهو أن يؤتى بكلام يوهّم بخلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم، ومنه التتميم وهو زيادة فضلة كمفعول، أو حال، أو تمييز، أو جار ومجرور، إذ توجد هذه الفضلة حسناً بحيث لو حذفت صار الكلام مبتذلاً.^٢

وعن فائدة الإطناب يقول (أبو هلال العسكري): "والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشفاء لا يقع إلا بالإقناع، وأفضل الكلام أبينه، وأبينه أشدّه إحاطة بالمعاني، ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء والإيجاز للخواص، والإطناب مشترك فيه الخاصة والعامّة، والغبي والفظن، والريّض والمرتاح"^٣.

والإطناب - كذلك - ساحة لإظهار البراعة والقدرة البيانية؛ "فإنّ العرب جرت سنتهم على ذلك في خطبهم ومخاطبتهم ومفاخراتهم ومقاولاتهم، يقصدون بذلك إظهار قدرتهم على الكلام وتوسعهم في النثر والنظام، فيوجزون تارة ويطيّلون أخرى"^٤.

ويصف أحدُ الدارسين أسلوبَ ابن حزم القائم على الإطناب فيقول: "كثيراً ما كان ابن حزم يسترسل في ردوده على مخالفيه ويعاودُ تناول موضوعاً في أكثر من مكان، ويكرر حججه، ويرجع ذلك إلى محاولة ابن حزم التأكيد على صحة أقواله، والثبات على موقفه، وحصره لموضوعات الخلاف، وقدرته على تجزئتها، وتحليلها، والذي نراه هذا الإطناب الجدلي ما يُحسب لابن حزم لأنّه كان لا يُدخل في موضوعات الجدل ما ليس منها وكان يكرر قوله حيثما احتاج الموقف لذلك"^٥.

^١ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/١٤٥.

^٢ - انظر: الهاشمي: جواهر البلاغة ص ٢٤٨-٢٥٤.

^٣ - العسكري: الصناعتين ص ١٤٨.

^٤ - ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ١٠٧.

^٥ - السيوطي: الجدل الديني ص ٣٩.

إننا نزع أن الإطناب كان الأسلوب الأول والأكثر حضوراً عند ابن حزم في مناظراته بل وفي مؤلفاته أجمع، وشكل عاملاً إقناعياً وتأثيراً على المخاطب. وقد أثرت عوامل عدة في بروز الإطناب كأسلوب رئيسي عند ابن حزم؛ أهمها موسوعية ابن حزم وعلمه الكبير، فهو رجل لديه الكثير ليقوله، وقد رُزق حافظه واسعة وفهماً دقيقاً، فلا يناقش مسألة إلا وقد أحاط بها من جوانبها المتعددة، ودقق النظر والفهم فيها، فلا تغيب عنه فائدة فيها.

كما كان للبيئة والعصر الذي عاشه ابن حزم أثر في تشكّل هذا الأسلوب، فقد كان العصر مضطرباً يحمل تناقضاً هائلاً، وتعددًا في الأديان والعقائد والأفكار، فأصبحت الحاجة ملحة لإسهاب القول للتأثير في الناس؛ فثمة علماء لا بد لإقناعهم أن تأتي بالدليل تلو الآخر، وثمة دهماء من الناس لا بد أن تعيد القول وتطنبه لهم علّهم يفهمون ما تريد، وثمة خصوم كثير لا بد أن تفنّد حججهم وشبهاتهم، وكل ذلك يحتاج إلى الإسترسال والجود بالكلام.

والعجيب أن ابن حزم على ضيق صدره وحدة مزاجه لا يضيق بالإطناب، لأنّه يدرك أن مسؤولية نشر العلم والفهم غاية عسيرة، فتصدى لهذه الرسالة وأعطاهم حقها، فقرأه يردّ على المسائل مهما سخّفت، ويعيد الردّ كلما أعيدت المسألة، ويسهب في الجواب، فقد أعطاه مشروعه وثورته مزيداً من طول النفس والصبر. ولننظر الآن إلى نماذج من الإطناب في مناظرات ابن حزم.

(١) "أما بعد يا أخي يا أبا بكر سلامٌ عليك، سلام أخ مشوق طالبت بينه وبينك الأميال والفراسخ، وكثرت الأيام والليالي".^١

نرى الإطناب هنا بذكر الخاص (سلام أخ) بعد العام (سلام)، وذكر المتعدد (الأميال) و (الفراسخ)، وذكر التفاصيل (الأيام) و (الليالي). وهذا الإطناب يحمل بوضوح مشاعر الحبّ والودّ لهذا الصديق (أبا بكر) الذي قاسم ابن حزم أيام يؤسه في المعتقل عند (خيران العامري). إنّ ابن حزم يدرك أنّ المشاعر يجب أن يُعبّر عنها بإسهاب وافاضة، لأنّ القليل منها ربما يُعد ديباجة ومجاملة، ويدرك - في مقابل ذلك - أنّ الكثير المبالغ فيه ربما يُعد نفاقاً ودجلاً.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧١.

(٢) "ثم لما ضمنا المجلس الحافل بأصناف الآداب والمشهد الأهل بأنواع العلوم، والقصر المعمور بأنواع الفضائل، والمنزل المحفوف بكل لطيفة وسيدة من دقيق المعاني وجليل المعالي قرارة المجد، ومحل السؤدد، ومحط رحال الخائفين وملقى عصا التسيار عند الرئيس الأجل"^١.

إنّ الرسم بالكلمات لهذا المشهد جاء بفضل الإطناب، فالتصوير عندما يكون غاية لن يُفلح فيه الإيجاز أبداً، لقد أراد ابن حزم أن ينقل السامع بخياله إلى ذلك المجلس. وقد استطاع ذلك من خلال تعاطف النعوت والصفات.

(٣) "فحسبي بدينك العلمين دليلاً على سعيه المشكور وفضله المشكور، أبي عبد الله محمد بن قاسم صاحب البوننت، أطال الله بقاءه وأدام اعتلاءه، ولا عطل الحامدين من تحليهم بحلاه ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه"^٢.

لقد أبرز الإطناب بالدعاء غرض المديح، فالممدوح ذو فضل على ابن حزم، فجاد له بما لا وجود به كثيراً، فمدحه من خلال الدعاء له والإسهاب في ذكر فضائله، لأنّ المدح لا يحتاج بخلًا بالقول، بقدر احتياجه إلى الإطالة والإعادة وكثرة الثناء.

(٤) "وهو صلى الله عليه وسلم إتما يذكر طائفتين، وبشر بفئتين وسمّى أحدهما الأولين"^٣.

(٥) "فكذلك لا تُنازع في محمد بن هاني سوانا، والعدل أولى ما حُرس عليه، والنصف أفضل ما دُعي إليه"^٤.

واضح أنّ الإطناب جاء هنا من خلال تكرار المعنى بشكل مختلف؛ (يذكر طائفتين) و(بشر بفئتين)، وكذلك (العدل أولى) و(النصف أفضل). وقد أراد ابن حزم من خلال إطنابه هذا الإلحاح على المعنى وتأكيد، وترسيخه في ذهن المخاطب. فالنموذج الأول يؤكد فيه أنّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخبر عن هاتين الفئتين أنّهما سيفتحان أرض الأندلس. وفي النموذج الآخر أراد ابن حزم التأكيد على قاعدة العدل والإنصاف العامة في ردّ نسبة العالم إلى الأرض التي يسكنها لا إلى الأرض التي يُولد فيها.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧٢.

^٢ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٢.

^٣ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٤.

^٤ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٦.

(٦) "وهذه بغداد حاضرة الدنيا، ومعدن كل فضيلة، والمحلة التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف والتدقيق في تصريف العلوم، ورقة الأخلاق، والنباهة والذكاء وحدة الأفكار ونفاذ الخواطر".^١

لم يخرج الإطناب وتتابع الوصف بالنص السابق إلى (الحشو) أو (اللغو)، فإن مثل هذه العيوب ليست في نظر ابن حزم عيوباً فنية وحسب، بل هي عيوب (شرعية)، فاللغو منهى عنه دينياً، لإضاعته الوقت والجهد. والأوصاف التي وصف بها ابن حزم بغداد تؤدي -على تقاربها- كل منها دوراً مختلفاً عن الأخرى، وتشكل بمجموعها وصفاً دقيقاً لها.

(٧) "وما أعلم في أخبار بغداد تأليفاً غير كتاب أحمد بن أبي طاهر، وأما سائر التواريخ التي ألفها أهلها فلم يخصصوا بلدتهم بها دون سائر البلاد، ولا أعلم في أخبار البصرة غير كتب عمر بن شبة، وكتاب لرجل من ولد الربيع بن زياد المنسوب إلى أبي سفيان...".^٢

هذا النص عينة من مناظرة (فضل الأندلس وذكر رجالها)، وفيها يحاول ابن حزم إثبات تفوق أهل الأندلس بعلمهم وعلمائهم، وقد اعتمد لأجل ذلك الإحصاء والاستقصاء، وهذا منهج يحتاج إلى الإطناب وتفصيل القول، لأن الحكم الذي أدعاه يحتاج إلى براهين ملموسة ولا يكفي فيه إطلاق الأحكام وحسب، وقد ساعد ابن حزم على هذا الإطناب حافظه الكبيرة التي أسعفته في استحضار الشواهد والوقائع وأسماء العلماء ومؤلفاتهم.

(٨) "وصار [أي المبدع عند أهل الأندلس] غرضاً للأقوال، وهدفاً للمطالب، ونصباً للتسبب إليه، ونهباً للألسنة، وعرضة للتطرق إلى عرضه".^٣

يتقارب ابن حزم - أحياناً - مع أسلوب كُتاب عصره من حيث الإسهاب والإطناب، إظهاراً لبراعته وفصاحته، لإدراكه الأثر الجمالي الذي يتركه هذا الإطناب، وقدرته التوصيفية والتشخيصية للموقف، كما في النص السابق.

(٩) ويكمل ابن حزم وصف الحال المزرية للمبدعين في الأندلس: "فإن تعرض لتأليف، غمز ولمز، وتعرض وهمز، واشتط عليه، وعظم يسير خطبه، وأستشنع

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧٦.

^٢ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٦.

^٣ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٧.

هين سَقْطه، وذهبت محاسنه، وسُتُرت فضائله، وهتف ونودي بما أغفل، فتتكس لذلك همته، وتبرد حميته"^١.

الحديث عن هذا النص مشابه لما سبق، إضافة إلى أن الإطناب منح ابن حزم مساحة أوسع لإستخدام الحُلَى اللفظية والزينة البديعية، فجاء النص ذا إيقاع وإنسجام، مما رفع من قيمته البلاغية والبيانية.

١٠ (و حين يعدّ ابن حزم مؤلفات الأندلسيين يقول: "وفي تفسير القرآن: كتاب أبي عبد الرحمن بقي بن مخلد، فهو الكتاب الذي أقطع قطعاً لا أستثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله"^٢.

قد يُعد هذا الثناء على تفسير (بقي بن مخلد) نوعاً من الإطناب والحفاوة لا غير، سيّما أنه جاء في غير موطنه وسط حشدٍ من الأسماء الذين ذكرهم ابن حزم، غير أن ابن حزم حذر غاية الحذر عندما يتحدث في أحكام علمية أو أرقام إحصائية، لأن الإطناب سيضره ولا ينفعه، إذ أنه يعلم أن زلة مهما صغرت فإن ضررها عظيم عليه لكثرة المترصدين لهفواته وعثراته.

١١ (وعندما ذكر ابن حزم مؤلفات علماء الأندلس قال عنها: "ومنها في الحديث: مُصنّف أبي محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح، ومُصنّف محمد بن عبد الله بن أيمن، وهما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الأحاديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات، ولقاسم بن أصبغ هذا تآليف حسان جداً، منها أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل وكلامه، ومنها كتاب..."^٣.

١٢) "... وكتاب جمعه أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التبان في اللغة، لم يؤلف مثله اختصاراً وإكثاراً وثقة نقل، وهو أظنّ في الحياة، وههنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها، وهي..."^٤.

يمكن أن نلمس الجهد الكبير الذي بذله ابن حزم في هذين النصين وأشباههما ليسطر على أفكاره ويسير في خط واحد، لما نراه من إزدحام في المعلومات، وكثرة الجمل

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٢/١٧٨.

^٢ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٨.

^٣ - المصدر نفسه ص ٢/١٧٩.

^٤ - المصدر نفسه ص ١٨١-٢/١٨٢.

المعترضة والفوائد والمعلومات المتصلة بالموضوع، وهذا كله يغري بالتطويل والإسطراد.

بالطبع، لا نقول إن ابن حزم ابتعد عن الإسطراد بشكل كامل، لكنه حاول تجنبه وتحاشيه، واستعاض بالإلماح والإشارة السريعة عن الخروج من موضوعه، مما جعل نصوصه - في الغالب - منسجمة ومركزة وبعيدة عن التشتت أو الحشو.

١٠ - الجملة الاسمية والجملة الفعلية

حين تحدّث (ابن الأثير) عن الفرق بين الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية قال: "وإنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضرب من التأكيد والمبالغة، فمن ذلك قولنا: قام زيد، وإنّ زيدا قائم، فقولنا (قام زيد) معناه الإخبار عن زيد بالقيام، وقولنا (إنّ زيدا قائم) معناه الإخبار عن زيد بالقيام أيضاً، إلا أن في الثاني زيادة ليست في الأول".^١

ومثال آخر هو قول الله تعالى: (وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) [البقرة: ١٤]، فإنّ المنافقين حين خاطبوا المؤمنين خاطبهم بالجملة الفعلية (آمنا)، وحين توجهوا بالخطاب لشیاطينهم خاطبهم بالجملة الاسمية المحققة بأنّ المشددة (إنّا معكم) "لأنّهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبة ووفرة نشاط، وكان ذلك متقبلاً منهم ورائجاً عند إخوانهم. وما قالوه للمؤمنين فإنّما قالوه تكلفاً وإظهاراً للإيمان خزيا ومداجاة، وكانوا يعلمون أنّهم لو قالوا بأوكد لفظ وأشدّه لما راج لهم عندهم إلا رواجاً ظاهراً..."^٢

من الطبيعي جداً أن تتوزع جمل أيّ مبدع داخل نصوصه بين اسمية وفعلية، وهذا ينسحب على ابن حزم الذي راوح بين النوعين، بيد أنّنا نعتقد أنّ اختيار ابن حزم لنوع الجملة كان في أحيان كثيرة يتم وفق رؤية ما، ونظنّ أنّ هذه الرؤية متمثلة بالنظر إلى الأمور في إطار (الثابت) و(المتغير)، أو في إطار الأصول والفروع.

^١ - ابن الأثير: المثل السائر ص ٢/٥١.
^٢ - ابن الجوزية: الفوائد المشوّق ص ٢٠٧.

إنّ التلاقي العجيب الذي جمع ابن حزم ومذهبه هو الذي ربط المذهب الظاهري عموماً بالإمام ابن حزم، فالمذهب الظاهري جامد غاية الجمود (ثابت) في الأصول، حيث يتمسك بالأصول النصية ويرفض ما عداها من قياس وتعليل واستحسان واستصحاب. وفي المقابل فإنّ انفتاح المذهب على الوقائع الحياتية والمتغيرات والمتجددات دون أن يملك أدوات غير النص ولّد انفصلاً بين المذهب والحياة، لكنّه أطر تلك القضايا تحت باب عريض هو بقاء الأشياء على الأصل (البراءة الأصلية)، فجعل كل الأشياء مباحة ولا شأن للنص فيها، وبناء عليه فمهما جاءت وتولدت القضايا فإنّ المنظور إليها سيبقى واحداً، مما أدى إلى (ميوعة) في المذهب وقصور عن مواكبة المستجدات، وهذا ما نسميه (المتغير).

وهكذا انقسم المذهب بين التعنت المطلق وبين السهولة والتوصل المطلق. وانقسم ابن حزم بين الأمرين، فتكونت عنده قضايا ثابتة لا يمكن أن يتراجع عنها، عبر عنها - غالباً - بالجمال الاسمية، وقضايا قابلة للنقاش ولتغيير المواقف، عبر عنها - غالباً - بالجمال الفعلية، ومن ذلك:

(١) "قال أبو محمد علي بن أحمد بن حزم: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وسلم تسليمًا، (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) [الكهف: ١٧]. وأصدق الكلام كلام الله عز وجل، وخير الهدى هدي محمد عليه السلام، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ومن الجهل والحيرة، ونسأله تعالى الهدى والتوفيق لما يرضيه. آمين".^١

هذه مقدمة مناظرة يردّ بها ابن حزم على رجل يسأل عن أحكام الإمامة (رسالة في الإمامة)، وهي إنموذج مميز للثابت والمتغير عند ابن حزم، فثمة قضايا في المناظرة لا يناقشها ابن حزم لأنها تعدّ مسلمات لديه، ولكن ثمة قضايا ليست قليلة يتسع فيها صدره للخلاف، ونراه أقرب إلى التسليم بأقوال الآخرين والإعتراف بأنّها تملك بعضاً من الصحة والوجاهة.

أما المقدمة نفسها فقد جاءت نمطية، استخدمها ابن حزم كغيره من الكتاب، وقد سيطرت عليها الجمال الاسمية؛ (الحمد لله رب العالمين)، و(أصدق الكلام كلام الله)،

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٠٧.

و(وخير الهدي هدي محمد عليه السلام)، و(شرّ الأمور محدثاتها)، و(كل محدثة بدعة)، و(كل بدعة ضلالة). وهذه الجمل على كثرة تداولها تعتبر مسلمات وقناعات يقتضيها إسلام ابن حزم أولاً ثم إقتناعه الراسخ بها. كما أنّ تكرار الجمل الاسمية يشير إلى نأي ابن حزم بمقدمات مناظرته عن الجدل المباشر، فهو يعتبرها مساحة ذاتية يُفرغ فيها ما يريد أن يقوله، بعيداً عن موضوع المناظرة نفسها، لذا يحافظ على ثباتها من خلال الجمل الاسمية. أمّا الجمل الفعلية فجاءت جملاً دعائية، تحمل التجدد، لأنّ دعاء العبد لربه لا بد أن يتواصل ويستمر ما دام في حياته الدنيا.

(٢) "قرأت -علمنا الله وإياك ما يزلفنا لديه- سؤالك، ووقفت عليه، وذكرت فيه إنيك إنما تسأل سؤال المتعلم، وذكرت قول الله عز وجل ..."^١.

تكشف لنا الجمل الفعلية المسيطرة على النص السابق تعامل ابن حزم الإجرائي تجاه المناظرة وكيفية تحضيره لها، فالتجدد في (القراءة) والتعلم متواصل ومستمر عند ابن حزم، وهو أمر يقتضيه تفصّيه وبحثه في المسائل ووقوفه عليها، واستماعه لآراء الجميع، وذلك كله متواصل مستمر لا يتوقف أبداً.

(٣) "ثم قلت: فيقال لك ..."^٢.

(٤) "ثم ذكرت أنّ ... فاعلم"^٣.

(٥) "ثم قلت أنّ ذلك الإمام ... فاعلم"^٤.

هكذا يفتح ابن حزم أكثر ردوده في هذه المناظرة، وتشير الجمل الفعلية السابقة إلى التفاعل المستمر مع المناظر، وإخلاص ابن حزم وجدّه في الردّ عليه مهما كان سؤاله تافهاً أو سخيلاً. كما تُظهر الجمل الفعلية ابن حزم مستجيباً وراداً للفعل لا مفتعلاً له، وهذا ينسحب على كثير من مناظراته، فمعظمها جاء استجابة لسؤال أو موقف ما.

(٦) "ثمّ قلت... وهذا يا أخي أعجوبة"^٥.

(٧) "ثمّ قلت... فهذا غير ما كنّا فيه..."^٦.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢٠٧.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٢٠٨.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٢٠٨.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٢٠٩.

^٥ - المصدر نفسه ص ٣/٢٠٩.

^٦ - المصدر نفسه ص ٣/٢٠٥.

(٨) "ذكرت دعاءه بعد الصلاة، فحسن"^١.

نرى هنا مقابلة ابن حزم الجمل الفعلية المتضمنة أقوال الخصم بجمل اسمية، وهذا يؤكد ثقته وثباته على إجاباته؛ ففي النموذج الأول أراد أن يفهم الخصم أن كلامه لا يستحق مجرد الرد. أمّا في النموذج الثاني فأراد إشعار الخصم أنه خرج بقوله الذي قاله عن موضوع المناظرة. وفي النموذج الأخير يظهر موقف ابن حزم الثابت من المسائل التي دارت حولها آراء مختلفة، مع اعترافه بأنها جميعاً صحيحة.

(٩) "إنّ قول كل واحد مردود إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم"^٢.

(١٠) "ولا يحلّ لمسلم أن يحكم قول قائل على قول النبي صلى الله عليه وسلم"^٣.

يمثل النموذجان أصلاً من أصول الظاهرية، فالنموذج الأول جاء جملة اسمية مؤكداً ابن حزم من خلالها رفضه المطلق والقطعي لأيّ كلام ليس له أصل مردود إلى المُشرّع. أمّا النموذج الآخر فقد جاء أقلّ قطعيته نظراً لأنّ هناك أقوالاً مبنية على أقوال المُشرّع قد يستعملها البعض، فجاء بالجملة الفعلية إحياءً بإدراكه لهذا الموقف.

(١١) "والله يعلم إنّي غير حريص على الفتيا"^٤.

نرى هنا تعمّد ابن حزم الإتيان بقوله على شكل جملة اسمية، ومراده من ذلك تأكيد حقيقة نيته، وهي عدم حرصه على تصدر الفتيا، فجاء بالجملة الاسمية ليثبت الأمر في نفس المخاطب ويعطيه مزيداً من العمق.

^١ - ابن حزم: رسائل ابن حزم ص ٣/٢١٢.

^٢ - المصدر نفسه ص ٣/٢١٣.

^٣ - المصدر نفسه ص ٣/٢١٣.

^٤ - المصدر نفسه ص ٣/٢١٥.